# الباب الثالث

## الفصل الأول

## قضية الإعجاز القرآنى

حين ابتعث الله الرسل ابتعثهم بآيات تدل على صدق نبوتهم وأنهم مصطفون من قوة فوق قوى البشر، وكانت هذه المعجزات المناصرة للأنبياء من جنس ما برع فيه قومهم . فموسى كانت معجزته من جنس السحر الذى برع فيه قومه ، وعيسى كانت معجزته الطب لبراعة قومه فيه، ومحمد معجزته البيان لأنه مبعوث إلى قوم فصحاء أبيناء .

نزل القرآن إلى العرب وتحداهم أن يأتوا بمثله وجعل عاقبة هذا التحدى أمارة صدق الرسول محمد: ( فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين )[1] ( أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشرِ سورٍ مثله مُفْتَريات )[2] ( إن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله )[3] ( أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورةٍ مثلِه وادعوا من استطعتم من دون الله )[4] تحداهم « والكلام كلامهم وهو سيد عملهم قد فاض بيانهم وجاشت به صدورهم وغلبتهم قوتهم عليه عند أنفسهم حتى قالوا فى الحيات والعقارب والذئاب والكلاب والخنافس والجعلان والحمير والحمام وكل ما دب ودرج ولاح لعين وخطر على قلب ولهم بعد أصناف النظم وضروب التأليف كالقصيد والرجز والمزدوج والمجانس والأسجاع والمنثور ، وبعد فقد هجوه من كل جانب وهاجى أصحابه شعراءهم ونازعوا خطباءهم وحاجوه فى المواقف

---

( ١ ) سورة الطور آية ٣٤ .
( ٢ ) سورة هود آية ١٣ .
( ٣ ) سورة البقرة آية ٢٣ .
( ٤ ) سورة يونس آية ٣٨ .

وخاصموه فى المواسم وبادروه العداوة وناصبوه الحرب فقتل منهم وقتلوا منه وهم أثبت الناس حقداً وأبعدهم مطلباً وأذكرهم لخير أو لشر وأنفاهم له وأهجاهم بالعجز وأمدحهم بالقوة ثم لا يعارضه معارض ولم يتكلف ذلك خطيب ولا شاعر ومحال فى التعارف ومستنكر فى التصادق أن يكون الكلام أخصر عندهم وأيسر مؤنة عليهم وهو أبلغ فى تكذيبهم وأنقض لقوله وأجدر أن يعرف ذلك أصحابه فيجتمعوا على ترك استعماله والاستغناء به وهم يبذلون مهجهم وأموالهم ويخرجون من ديارهم فى إطفاء أمره وفى توهين ما جاء به ولا يقولون بل لا يقول واحد من جماعتهم: «لم تقتلون أنفسكم وتستهلكون أموالكم وتخرجون من دياركم والحيلة فى أمره يسيرة والمأخذ فى أمره قريب ليؤلف واحد من شعرائكم وخطبائكم كلاماً فى نظم كلامه كأقصر سورة يخذلكم بها وكأصغر آية دعاكم إلى معارضته»[1] عجزوا إذن وكان القرآن قد أخبر حين تحدى بأن العاقبة الإخفاق فإن قوى الثقلين مجتمعه لتتقطع دون هذا القرآن: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله)[2].

لقد كان موقف العرب من هذا القرآن موقف المبهور المتحير الذى لا يدرى إلا أنه أمام قوة فوق قواه ونصب طاقة معجزة وصور لنا التاريخ حيرتهم هذه.. يحكى ابن إسحاق يقول: اجتمع إلى الوليد بن المغيرة نفر من قريش وكان ذا سن فيهم وقد حضر الموسم فقال لهم: يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأياً واحداً . . . قالوا: نقول كاهن. قال: لا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه. قالوا: فنقول مجنون. قال: ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته. قالوا: فنقول شاعر قال: ما هو شاعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه.

---

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل للمبرد جـ ٢ ص ٨٠٥ مطبعة التقدم العلمية سنة ١٣٢٣ مصر.

(٢) سورة الإسراء آية ٨٨.

فما هو بالشعر . قالوا : فنقول ساحر قال : ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناة . قال ابن هشام : ويقال لعزق — وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر جاء بقوله هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته ؛ فتفرقوا عنه بذلك[١] ؛ فالحكم الذى قر عليه رأى الوليد حكم قائم على معرفة الأثر النفسى للقرآن فهو يملك على الإنسان أمره ويستأثر بلبه حتى ليؤثره على الولد والأهل والعشيرة .

وسجل القرآن حيرتهم وأقوالهم المتخبطة فيه فقال تعالى : ( وقال الذين كفروا للحق لمّا جاءهم إن هذا إلا سِحْرٌ مبين )[٢] ( بل قالوا أضغاثُ أحلامٍ بل افتراه بل هو شاعر )[٣] ( وقالوا أساطيرُ الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا )[٤] كما صور موقف العناد الذى وقفوه حين تحدوا فعجزوا ( قد سمعْنا لو نشاءُ لقلنا مثلَ هذا إنْ هذا إلا أساطيرُ الأولين )[٥] ( وقال الذين كفروا لولا نُزِّلَ عليه القرآنُ جُمْلةً واحدةً )[٦] وفضحت هذه الآية حسدهم محمداً على أن كانت معجزته القرآن قال تعالى : ( وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتين عظيم )[٧] .

بل لقد كان من معانديهم من يلذ له استماع القرآن مسترقاً ليرضى فتنة نفسه بهذا الإعجاز البيانى قال ابن إسحاق : « وحدثنى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس

---

(١) السيرة لابن هشام جـ ١ ص ٢٨٩ .
(٢) سورة سبأ آية ٤٣ .
(٣) سورة الأنبياء آية ٥ .
(٤) سورة الفرقان آية ٥ .
(٥) سورة الأنفال آية ٣١ .
(٦) سورة الفرقان آية ٣٢ .
(٧) سورة الزخرف آية ٣١ .

ابن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى حليف بنى زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى من الليل فى بيته فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ماقالوا أول مرة ، ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا» (١) .

وحين عرفوا استيلاء القرآن على النفوس وخاصة تلك التى تقدر جمال البيان قدره منعوا عنه الشعراء وحالوا — جهدهم — بين الفصحاء وبينه . قال تعالى : ( وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن )(٢) .

وقال ابن إسحاق : « وكان الطفيل بن عمرو السدوسى يحدث أنه قدم مكة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بها فمشى إليه رجل من قريش وكان الطفيل رجلا شريفاً شاعراً لبيباً فقالوا له : يا طفيل إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا وقد فرق جماعتنا وشتت أمرنا وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه وبين الرجل وبين أخيه وبين الرجل وبين زوجته وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنَّه ولا تسمعن منه شيئاً . قال : فوالله ما زالوا بى حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه حتى حشوت فى أذنى حين غدوت إلى المسجد كرسفاً فرقاً من أن يبلغنى شىء من قوله ... فعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام وتلا علىَّ القرآن فلا والله

---

(١) السيرة لابن هشام جـ ١ ص ٣٣٧ .

(٢) سورة فصلت آية ٢٦ .

ما سمعت قولا قط أحسن منه ولا أمراً أعدل منه. قال فأسلمت وشهدت شهادة الحق »[١] .

وهذا الأعشى خرج إلى الرسول يريد الإسلام وقد أعد له قصيدة يمدحه بها . . ولكن اعترضه بعض المشركين من قريش فسأله عن أمره فأخبره أنه جاء يريد الرسول صلى الله عليه وسلم ليسلم فقال له : يا أبا بصير إنه يحرم الزنا . فقال الأعشى والله إن ذلك لأمر مالى فيه من أرب . فقال له يا أبا بصير فإنه يحرم الخمر فقال الأعشى : أما هذه فوالله إن فى النفس منها لعلالات ولكنى منصرف فأتروى منها عامى هذا ثم آتيه فأسلم فانصرف فمات فى عامه ذلك ولم يعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] .

ذلك هو موقف المعاندين من القرآن وإعجازه أما الرسول والصحابة فكانوا إذا خلوا إلى القرآن يقرءونه اندمجوا فى جوه الروحى : عاشوا فى نصه وانعقدت الصلة بين نفوسهم وبين معانيه فخشعوا وبكوا . يحكى مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه يقول : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء »[٣] وأبو بكر كان رجلا بكاء لا يملك دموعه إذا قرأ القرآن[٤] وعمر بن الخطاب كان يصلى بالناس فبكى فى قراءته حتى انقطعت قراءته وسمع نحيبه من وراء ثلاث صفوف ، وقرأ ابن عمر ( ويل للمطففين ) [ ١ المطففين ] فلما أتى على قوله : ( يوم يقوم الناس لرب العالمين ) [ ٦ المطففين ] بكى حتى انقطع عن قراءة ما بعدها[٥] . وهنالك أخبار غير هذه[٦] والكل يشير إلى الأثر النفسى العميق الذى يتركه القرآن فى

---

( ١ ) السيرة لابن هشام جـ ٢ ص ٢٢ و ٢٣ .

( ٢ ) السيرة لابن هشام جـ ٢ ص ٢٦ — ٢٨ .

( ٣ ) التذكار فى أفضل الأذكار للقرطبى ص ١١١ .

( ٤ ) التذكار فى أفضل الأذكار للقرطبى ص ١٤٠ وجاء فى السيرة لابن هشام جـ ٢ ص ١٣ وصف عائشة لأبيها أبى بكر إذ تقول : كان رجلا رقيقاً إذا قرأ القرآن استبكى .

( ٥ ) التذكار فى أفضل الأذكار ص ١٤٠ .

( ٦ ) نفس المرجع السابق ص ١٤١ — ١٤٥ .

نفس تاليه . لقد شغل القرآن الصحابة والرعيل الإسلامى الأول فاتبعوه ديناً ودنيا قرءوه بقلوبهم وعاشوا فى معناه . وكان همهم أن يشيروا إلى أثر معانيه فى النفس ؛ فالطبرى يروى أن عائشة قالت : قلت يا رسول الله إنى لأعلم أشد آية فى القرآن . فقال : ما هى يا عائشة ؟ قلت هى هذه الآية يا رسول الله : ( مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ به ) فقال هو ما يصيب العبد المؤمن حتى النكبة ينكبها[١] .

وابن مسعود يقول فى خمس آيات من سورة النساء : لهن أحب إلى من الدنيا جميعاً : ( إن تجتنبوا كبائر ما تُنْهَوْن عنه نُكَفِّر عنكم سيئاتكم ) [ ٣١ النساء ] وقوله : ( إن الله لا يظلم مثقالَ ذرَّة وإنْ تكُ حسنة يُضاعِفْها ) [ ٤٠ النساء ] وقوله : ( ومن يعمل سُوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد اللهَ غفوراً رحيماً ) [ ١١٠ النساء ] وقوله : ( والذين آمنوا بالله ورُسله ولم يُفرِّقوا بين أحدٍ منهم أولئك سوفَ يُؤْتِيهم أجورهم وكان الله غفُوراً رحيماً )[٢] [ ١٥٢ النساء ] ويقول ابن عباس ثمان آيات نزلت فى سورة النساء هى خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت أولاهن : ( يريدُ الله ليُبيِّن لكم ويهديَكُم سنن الذين من قبلِكُم ويتُوبَ عليكُم واللهُ عليمٌ حكيمٌ ) [ ٢٦ النساء ] والثانية : ( واللهُ يريدُ أن يتوب عليكُم ويريدُ الذين يتَّبِعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيماً ) [٢٧ النساء] ( يريدالله أن يخفِّف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ) ثم ذكر مثل قول ابن مسعود سواء وزاد فيه[٣] .

ولما كانت حركة الفتوح وامتزاج ثقافة الأمة العربية بغيرها من الأمم ودخول تلك الأمم فى الإسلام أخذ الإسلام يتعرض لحركة طعن وتشكيك من أصحاب الديانات القديمة وكان طبيعيًّا أن يتجه همّ الطاعنين إلى ذلك الكتاب الذى أحدث تلك النهضة العربية وأدال من دولهم وأديانهم وأحبوا أن ينقضوا معجزة هذا الدين والله يقول عن قرآنه : ( ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٥ ص ١٨٩ الطبعة الأولى سنة ١٣٢٣ هـ .
(٢) نفس المرجع السابق جـ ٥ ص ٢٩ و ٣٠ .
(٣) نفس المرجع جـ ٥ ص ٣٠ .

اختلافاً كثيراً ) [٨٢ النساء] ومن ثم راحوا يلتوون بمعانيه ويحكمون عليه بالتناقض واللحن وفساد النظم وقد لخص لنا ابن قتيبة مطاعن أعداء الإسلام فى الكتاب فقال: « وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه وهجروا واتبعوا ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله بأفهام كليلة وأبصار عليلة ونظر مدخول فحرفوا الكلم عن مواضعه وعدلوه عن سُبُله ثم قضوا عليه بالتناقض والاستحالة واللحن وفساد النظم والاختلاف وأدلوا فى ذلك بلعل ربما أمالت الضعيف الغمر والحدث الغر وعرضت بالشبه فى القلوب وقدحت بالشكوك فى الصدور . . »[1] وشحن الجو الإسلامى بما أثاروه من شكوك — وخاصة بغداد — عاصمة الملك الإسلامى وملتقى التيارات الثقافية الوافدة على الفكر العربى — فهذا أبو عبيدة معمر بن المثنى يروى أن الفضل بن الربيع استقدمه إلى بغداد سنة ثمان وثمانين ومائة فلقى عنده أحد كتاب الوزير وجلسائه وهو إبراهيم بن إسماعيل الكاتب الذى يسأله قائلا : قال الله عز وجل : ( طلعها كأنه رءوس الشياطين ) [ ٦٥ الصافات ] وإنما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله وهذا لم يعرف ويستمر أبو عبيدة فى روايته فيقول : فقلت إنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم أما سمعت قول امرئ القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضـــاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به . . . وعزمت منذ ذلك اليوم أن أضع كتاباً فى القرآن فى مثل هذا وأشباهه وما يحتاج إليه من علمه فلما رجعت إلى البصرة عملت كتابى الذى سميته المجاز[2] .

ولعل كتاب المجاز لأبى عبيدة أول كتاب — فيما نعلم — يبحث — فيما يبحث — فى أسلوب القرآن بمقابلته أساليب العرب وتقرير أنه نمط منها ، وهذه الآية بعينها التى كانت سبباً فى تأليف المجاز يوردها الجاحظ على أنها من طعن

---

(١) مخطوط المشكل لابن قتيبة ورقة ١٠ .
(٢) معجم الأدباء لياقوت جـ ١٩ ص ١٥٨ — ١٥٩ .
(٣) الحيوان للجاحظ جـ ٦ ص ٢١١ — ٢١٣ .

الطاعنين ويبين أقوالهم فيها ثم يدحضها بدفوعه[٣] . وهكذا صار نظم القرآن ومعانيه أمام هجوم عنيف فقام علماء الإسلام من متكلمين ولغويين ومفسرين ينافحون عنه . ينافحون عن حجة نبوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم . ذلك لأنه لا يعرف فضل القرآن إلا من عرف الأسلوب العربى وفنونه . يقول ابن قتيبة: « وإنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره واتسع علمه وفهم مذاهب العرب وافتنانها فى الأساليب وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات »[١] فكان على المدافعين عن الإعجاز القرآنى أن يبدءوا منذ النقطة الأولى فالقرآن عربى حجة لرسول عربى إنما أنزل: ( بلسان عربى مبين )[١٩٥ الشعراء] كان عليهم أن يبينوا خصائص الأسلوب العربى الذى يجرى على نمطه البيان القرآنى ومن ثم نجد أبا عبيدة يؤلف ( المجاز ) والجاحظ يؤلف كتاب ( نظم القرآن ) الذى يقول هو عنه: « أجهدت فيه نفسى وبلغت منه أقصى ما يمكن مثلى فى الاحتجاج للقرآن والرد على كل طعان . . »[٢] وفى هذا الكتاب يقول الخياط المعتزلى: « لا يعرف المتكلمون أحداً منهم نصر الرسالة واحتج للنبوة بلغ فى ذلك ما بلغه الجاحظ ولا يعرف كتاب فى الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه وأنه حجة لمحمد صلى الله عليه على نبوته غير كتاب الجاحظ »[٣] ويحدثنا الجاحظ أيضاً أن له كتاباً يبحث فى الأسلوب القرآنى ومزيته يقول: « ولى كتاب جمعت فيه آياً من القرآن لتعرف بها فضل ما بين الإيجاز والحذف وبين الزوائد والفضول والاستعارات فإذا قرأتها رأيت فضلها فى الإيجاز والجمع للمعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة »[٤] ونجد صورة واضحة من مطاعن الطاعنين واحتجاج الجاحظ لنظم القرآن فى كتابه الحيوان[٥] وهذا ابن قتيبة يؤلف ( المشكل ) مدافعاً فيه

---

( ١ ) مخطوط المشكل لابن قتيبة ورقة ٥ .

( ٢ ) رسائل الجاحظ على هامش الجزء الثانى من الكامل للمبرد ص ١٢١ — ١٢٢ .

( ٣ ) الانتصار للخياط ص ١٥٤ و ١٥٥ .

( ٤ ) الحيوان للجاحظ جـ ٣ ص ٨٦ .

( ٥ ) مثلا مسألة الهدهد جـ ٤ ص ٧٧ — ٨٥ طعن الدهرية فى ملك سليمان واعتبار قصته من فساد أخبار المسلمين جـ ٤ ص ٨٥ —٩٣ وكلام المخالفين فى قوله تعالى: ( واسألهم عن القرية التى=

عن الأسلوب القرآنى فهو القائل : « فأحببت أن أنضح عن كتاب الله وأرمى من ورائه بالحجج النيرة والبراهين البينة وأكشف للناس ما يلبسون فألفت هذا الكتاب جامعاً لتأويل مشكل القرآن مستنبطاً ذلك من التفسير بزيادة فى الشرح والإيضاح وحاملا ما لم أعلم فيه مقالا لإمام متبع على لغات العرب» (١) والطبرى المفسر أيضاً يسوق كلاماً منطقيًّا مطولا ليدلل على عربية القرآن : « فالبيان تتفاضل مراتبه بين الخلق، وأعلى منازل البيان درجة أبلغه فى حاجة المبين عن نفسه وفضل بيان الله جل ذكره على بيان جميع خلقه كفضله على جميع عباده والله أنزل الكتب وبعث الرسل بلسان من بعثوا إليهم ولما كان محمد عربيًّا لسانه عربى فالقرآن عربى والواجب أن تكون معانى كتاب الله المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لمعانى كلام العرب موافقاً وظاهرة لظاهر كلامها ملائماً وأن يأتيه كتاب الله بالفضيلة التى فضل بها سائر الكلام والبيان »(٢).

ومن النقطة الأولى فى بحث الإعجاز وهو التدليل على عربية القرآن انتقل البحث إلى النقطة الثانية فيه وهى — إذا كان القرآن عربيًّا جارياً على نمط أساليب العرب فى منطقهم ففيم كان الإعجاز ؟ وبم يعلل هذا الإعجاز ؟ وقد كان للمتكلمين فضل السبق فى بحث هذه النقطة فقالت المعتزلة — إلا النظام وهشاماً الفوطى وعباد بن سليمان: « تأليف القرآن ونظمه معجز محال وقوعه منهم كاستحالة إحياء الموتى منهم وأنه علم لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال النظام: الآية والأعجوبة فى القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيه »(٣).

---

=كانت حاضرة البحر) . . جـ ٤ ص ١٠٠–١٠٥ وطعن ناس من الملحدين فى آية النحل وفى مجازها جـ ٥ ص ٤٢٣ — ٤٣١ ورد على طعن فى التشبيه برءوس الشياطين فى الآية: (إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم) جـ ٦ ص ٢١١ — ٢١٣ وطعن قوم فى استراق الشياطين السمع بوجوه من الطعن جـ ٦ ص ٢٦٤ — ٢٨٣ وتتمة النقاش جـ ٦ ص ٤٩٦ — ٥٠٢ ومواضع أخر . . .

(١) مخطوط المشكل لابن قتيبة ورقة ١٠ .

(٢) تفسير الطبرى جـ ١ ص ٤ — ٦ .

(٣) مقالات الإسلاميين للأشعرى جـ ١ ص ٢٢٥ طبعة إستانبول سنة ١٩٢٩م وقد حاول =

وهذا الحكم العقلى فيما نرى لم يصدر إلا نتاجاً لحكم أدبى يضع يدنا على هذا الإمام يحيى العلوى إذ يقول: « والذى غر هؤلاء حتى زعموا هذه المقالة ما يرون من الكلمات الرشيقة والبلاغات الحسنة والفصاحات المستحسنة الجامعة لكل الأساليب البلاغية فى كلام العرب الموافقة لما فى القرآن فزعم هؤلاء أن كل من قدر على ما ذكرناه من تلك الأساليب البديعة لا يقصر عن معارضته خلا ما عرض من منع الله إياهم . . . »[1] .

وقد ظل باحثو الإعجاز بعد يدورون حول هذين الرأيين أن إعجاز القرآن فى النظم أو الصرفة أو هو معجز بهما معاً . هذا الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ يرى أن القرآن معجز بنظمه وقد تحداهم بهذا النظم المعجز[2] ولكن الله رفع استطاعة الإتيان بمثل القرآن من أوهام العرب « وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن بعد أن تحداهم الرسول بنظمه ولذلك لم تجد أحداً طمع فيه ولو طمع فيه لتكلفه ولو تكلف بعضهم ذلك فجاء بأمر فيه أدنى شبهة لعظمت القصة

---

=الخياط الدفاع عن النظام ورأيه ولكنه دفاع ضعيف ليس فيه إلا تقرير رأى النظام فى أن الإعجاز فى الإخبار بالغيب وأغفل مسألة الصرفة فلم يدافع عنه فيها . راجع الانتصار للخياط ص ٢٧ و ٢٨ على أن جماعة من العلماء تابعوا النظام فى أن من وجوه الإعجاز القرآنى صرف الله العرب عن معارضته كعيسى ابن صبيح المكنى بأبى موسى الملقب بالمردار المتوفى سنة ٢٢٦ راجع ص ٣٧ ج ١ من الملل والنحل للشهرستانى . والجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ كما سنبين بعد . والخطابى المتوفى سنة ٣٨٥ هـ راجع ص ١٨ و ١٩ من كتاب إعجاز القرآن . والرمانى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ . الذى يقول فى مخطوط النكت ورقتا ١ و ٢ وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات : ترك المعارضة مع توافر الدواعى وشدة الحاجة والتحدى للكافة والصرفة والبلاغة والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة ونقض العادة وقياسه بكل معجزة. والشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ راجع ص ٣٩١ ج ٣ من الطراز ليحيى العلوى ، وابن سنان الخفاجى المتوفى سنة ٤٦٦ هـ على ما سنبين بعد والراغب الأصفهانى المتوفى سنة ٥٠٢ هـ راجع مقدمة التفسير للراغب الملحق بكتاب تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضى عبد الجبار ص ٤٢٩ – ٤٣١ . بل بعض الأشعرية تابعوا النظام فى قوله . يقول الشهرستانى ج ١ ص ٥٧ من الملل والنحل : ومن أصحابه – أى الأشعرى – من اعتقد أن الإعجاز فى القرآن من جهة صرف الدواعى وهو المنع من المعتاد ومن جهة الإخبار بالغيب. هذا ويفسر يحيى العلوى الصرفة ص ٣٩١ ج ٣ من كتابه الطراز بتفسيراته ثلاثة .

(١) الطراز ليحيى العلوى ج ٣ ص ٣٩٢ ط المقتطف سنة ١٩١٤ م .

(٢) رسائل الجاحظ على هامش الجزء الثانى من الكامل للمبرد ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

على الأعراب وأشباه الأعراب والنساء وأشباه النساء ولألقى ذلك للمسلمين عملا ولطلبوا المحاكمة والتراضى ببعض العرب ولكثر القيل والقال » ثم يقول بعد : « وفى كتابنا المنزل الذى يدلنا على أنه صدق نظمه البديع الذى لا يقدر على مثله العباد مع ما سوى ذلك من الدلائل التى جاء بها من جاء به » [١] فالجاحظ يرى وجهين للإعجاز أحدهما أن القرآن معجز بنظمه وتأليفه والثانى أن الله صرف الناس عن أن يعارضوا هذا الإعجاز القرآنى ومن ثم رأيناه فى مؤلفه (كتاب الاحتجاج لنظم القرآن) يرد على النظام ومن تبعه فى رأيه بأن القرآن ليس معجزاً بنظمه وأن للعرب القدرة على مثل نظم القرآن لولا صرفة الله[٢] .

وفرق ما بين رأيى النظام والجاحظ فى الصرفة ؛ أن النظام يرى قدرة المنشئين على أن ينظموا مثل القرآن ، والإعجاز فى صرف الله لهم عن هذا الصنيع . أما الجاحظ فيرى أن القرآن يصرف أطماع البلغاء عن الإتيان بمثله ليأسهم من استواء كلامهم على مرتبة عالية لا تتخلف من الجودة كما هو شأن الأسلوب القرآنى الذى يجرى جميعه على نمط واحد فى الجودة المعجزة ؛ القاطعة للأطماع .

والرمانى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ . قال : إن القرآن معجز ببلاغته وحد البلاغة بأنها إيصال المعنى إلى القلب فى حسن صورة من اللفظ فأعلاها طبقة فى الحسن بلاغة القرآن وأعلى طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم كإعجاز الشعر للمفحم فهذا معجز للمفحم خاصة كما أن ذاك معجز للكافة والبلاغة على عشرة أقسام : الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان [٣] ثم راح يعرف تلك الأقسام ويمثل لها من القرآن وبليغ الكلام وبذلك وضع يدنا على رأيه على وجه الإعجاز ثم بين لنا فيم هذه البلاغة من القرآن .

ورأى الخطابى المتوفى سنة ٣٨٥ هـ أن الوجه الأول فى الإعجاز القرآنى

---

(١) الحيوان للجاحظ جـ ٤ ص ٨٥ — ٩٣ .

(٢) رسائل الجاحظ على هامش الجزء الثانى من الكامل للمبرد ص ١٢١ و ١٢٢ .

(٣) مخطوط النكت للرمانى ورقتا ١ و ٢ .

هو الإحاطة الإلهية بأسرار اللغة حتى جاء القرآن معجزاً لفظاً ومعنى ونظماً يقول الخطابي: « وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور منها أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبأوضاعها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة»[١].

والوجه الثاني في الإعجاز عنده هو ما للقرآن من أثر نفسي يقول: «قلت في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها من الوجيب والقلق وتغشاها من الخوف والفرق ما تقشعر منه الجلود وتنزعج له القلوب يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها»[٢].

ومن الآراء في الإعجاز رأي الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ الذي وجد الملاحدة في عصره يعدلون القرآن ببعض الأشعار ويوازنون بينه وبين غيره من الكلام ولا يرضون بذلك حتى يفضلونه عليه[٣]. وقد دفعه هذا الصنيع إلى أن ينفرد بقوله: إن الوجه في إعجاز القرآن أنه نظم خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلامهم ومباين لأساليب خطابهم ليس من قبيل الشعر ولا السجع ولا الكلام الموزون غير المقفى ولهذا لم يمكن معارضته[٤] ثم يعرض الباقلاني

(١) إعجاز القرآن للخطابي ص ٢٧ – ٢٩ طبعة دار التأليف سنة ١٣٧٢ هـ.
(٢) إعجاز القرآن للخطابي ص ٩٢.
(٣) مقدمة إعجاز القرآن للباقلاني ص ١٠ مطبعة السلفية سنة ١٣٤٩ هـ.
(٤) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٣٨، ٣٩.

بعد لنقطة عملية فى منهج الكشف عن الإعجاز القرآنى تلك هى كيف يوقف على إعجاز القرآن ؟ يقول : وقد قدر مقدرون أنه يمكن استفادة إعجاز القرآن من أصناف البديع وليس كذلك عندنا لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدرب والتعود والتصنع لها . . . والوجوه التى تقول إن إعجاز القرآن يمكن أن يعلم منها فليس مما يقدر البشر على التصنع له والتوصل إليه ولكن قد يمكن أن يقال : إن أصناف البديع باب من أبواب البراعة وجنس من أجناس البلاغة وأنه لا ينفك القرآن عن فن من فنون بلاغاتهم ولا وجه من وجوه فصاحاتهم »[١] .

وقد حاول الباقلانى تجلية رأيه عمليًّا فعقد المقارنات بين القرآن وبليغ الكلام شعراً ونثراً[٢] والباقلانى يريد من وراء ذلك كله أن القرآن نمط وحده من القول لا يوازن بشعر ولا يوازن بنثر لأن مزيته عليهما تلوح لمن كان ببلاغات العرب وأساليب كلامهم عارفاً وإذ خلص من ذلك عمد هو إلى تبين الجمال فى القرآن فأعطانا صورة منفعل بالجمال يصف إحساسه وعجزه عن وضع اليد على منابع الجمال القرآنى يقول: « فأما منهج القرآن ونظمه وتأليفه ورصفه فإن العقول تتيه فى جهته وتحار فى بحره وتضل دون وصفه . . . وهو أدق من السحر وأهول من البحر وأعجب من الشعر[٣] وهو يصارحنا بأن دلالة الإعجاز فى بعض الآى أبين وأظهر والآية أكشف وأبهر[٤] ويقول كرة أخرى : نعتقد أن الإعجاز فى بعض القرآن أظهر وفى بعض أدق وأغمض »[٥] .

وظفر القرن الخامس برأيين على طرفى نقيض أما الرأى الأول فهو رأى الأمير أبى محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى الحلبى المتوفى سنة ٤٦٦ هـ . الذى تصور أن عناصر العمل الأدبى هى :

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٩٨ .
(٢) خطب الرسول والصحابة والبلغاء من ص ١١٠ — ١٢٦ وأشعار امرئ القيس ص ٦٣٠ إلى ص ١٤٧ والبحترى من ١٧٥ — ١٨٥ من إعجاز القرآن للباقلانى .
(٣) إعجاز القرآن للباقلانى ص ١٤٨ — ١٤٩ .
(٤) نفس المرجع السابق ص ١٦٣ .
(٥) نفس المرجع السابق ص ١٥٦ .

( ا ) الموضوع .
( ب ) الصانع .
( حـ ) الصورة .
( د ) الآلة .
( هـ ) الغرض[١] .

وقال : « إن الموضوع هو الكلام المؤلف من الأصوات . فأما الصانع المؤلف فهو الذى ينظم الكلام بعضه مع بعض كالشاعر والكاتب وغيرهما . . . وأما الصورة فهى كالفصل للكاتب والبيت للشاعر وما جرى مجراهما . وأما الآلة فأقرب ما قيل فيها إنها طبع هذا الناظم والعلوم التى اكتسبها بعد ذلك . . . وأما الغرض فبحسب الكلام المؤلف فإن كان مدحاً كان الغرض به قولا ينبئ عن عظيم حال الممدوح وإن كان هجواً فبالضد[٢] فإن قال لنا : ما تقولون أتم فى المعانى مع أن علقتها أيضاً وكيدة ؟ قلنا : المعانى وتأليف الألفاظ هى صناعة هذا الصانع التى أظهرها فى الموضوع وهى التى تكمل الأقسام المذكورة فأما الألفاظ فليست من عمله وإنما له منها تأليف بعضها مع بعض حسب[٣] . والموضوع — أو اللفظ — عند ابن سنان فى المرتبة الأولى أما التأليف والنظم عنده فليس إلا جمع هذه الألفاظ التى تحمل خصائص جمالية يطلق عليها الفصاحة[٤] فالفصاحة وصف مقصور على الألفاظ[٥] ثم هو يرى أن للإعجاز القرآنى وجهين : أحدهما أنه خرق العادة بفصاحته التى وقع التزايد فيها موقعاً خرج عن مقدور البشر[٦] وهذا القرآن الفصيح بعضه — عنده — أفصح من بعض ؟ يقول : « أما زيادة بعض القرآن على بعض فى الفصاحة فالأمر

---

( ١ ) سر الفصاحة لابن سنان ص ٨٥ الطبعة الأولى المطبعة الرحمانية سنة ١٣٥٠ هـ .
( ٢ ) نفس المرجع السابق ص ٨٥ و ٨٦ .
( ٣ ) نفس المرجع السابق ص ٨٧ .
( ٤ ) نفس المرجع السابق ص ٦٠ — ٨٣ .
( ٥ ) نفس المرجع السابق ص ٦٤ ، ٥ .
( ٦ ) سر الفصاحة لابن سنان ص ٤ .

فيه ظاهر لا يخفى على من علق بطرف من هذه الصناعة وشدا شيئاً يسيراً وما زال الناس يفردون مواضع من القرآن يعجبون منها فى البلاغة وحسن التأليف . . . فلو كانوا يذهبون إلى تساويه فى الفصاحة لم يكن لأفرادهم هذه المواضع المعينة المخصوصة دون غيرها معنى . . ثم ليس أحد ممن ينكر أن يكون بعض القرآن أفصح من بعض يتمنع من القطع على أن القرآن فى لغته أفصح من التوراة فى لغتها والإنجيل فى لغته والزبور فى لغته لأن تلك الكتب عنده لم تكن معجزة لخرقها العادة بالفصاحة وإن كان الجميع كلام الله تعالى »[١] .

والوجه الثانى فى إعجاز القرآن صرف العرب عن المعارضة مع أن فصاحة القرآن كانت فى مقدورهم لولا الصرف لأنها من جنس فصاحتهم[٢] والفصاحة كما فسرها — أمور جمالية فى اللفظ استقاها من كلام العرب[٣] .

وأما الرأى الثانى فى الإعجاز القرآنى فهو رأى عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ هـ ( وقيل ٤٧٤ هـ ) الذى تصور موضوع الإعجاز جزءاً من ظاهرة أوسع هى طريقة نظم البيان عامة[٤] وعالج فى كتاب ( دلائل الإعجاز ) طريقة نظم الكلام وترتيب معانيه وما يعرض لها من تقديم وتأخير وذكر وحذف وفصل ووصل وقصر واختصاص . . إلخ وهدفه وراء ذلك صرف الاهتمام إلى جانب المعنى بعد أن جعله ابن سنان ناحية اللفظ : « فالألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ولا من حيث هى كلم مفردة وإنما تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملائمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ »[٥] وليس النظم ضم الشىء إلى الشىء — كما رأينا

---

( ١ ) سر الفصاحة لابن سنان ص ٢١٢ — ٢١٤ .

( ٢ ) نفس المرجع السابق ص ٤ .

( ٣ ) يقول ص ٧٠ من سر الفصاحة : « إذا احتجت إلى إيراد الأمثلة فى المختار والمنبوذ والمحمود والمذموم فلا معدل لى عن أشعارهم وتصفح نظمهم وأخذ ما أريده عنها فى الصنفين معا » . ويقول ص ٨٨ : « إن من له معرفة وسابق علم بالفصاحة إنما حصل له ذلك بالمخالطة والمناشدة وتأمل الأشعار الكثيرة والكلام المؤلف على طول الوقت وبتراخى الأزمنة » .

( ٤ ) من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده للأستاذ محمد خلف الله .

( ٥ ) دلائل الإعجاز ص ٣٨ .

عند ابن سنان — بل هو نظم يراعى فيه ترتيب اللفظ وفق ترتيب المعانى فى النفس ولذا كان عندهم نظيراً للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشى والتحبير وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض حتى يكون لوضع كل حيث وضع علة تقتضى كونه هناك وحتى لو وضع فى مكان غيره لم يصلح. فالمعانى يعمل فيها الفكر فيتبعها اللفظ[١]: «إنك إذا فرغت من ترتيب المعانى فى نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً فى ترتيب الألفاظ بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعانى وتابعة لها ولاحقة بها وأن العلم بمواقع المعانى فى النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها فى النطق»[٢]. وبذلك حول المزية الجمالية من حيز اللفظ — كما هو الحال عند ابن سنان — إلى حيز المعانى[٣].

وبعد إذ أسرف فى المنافحة عن نظريته تلك بين أنه لنسير على بينة فى بحث جمالى ما فلا بد من وضع اليد على الخصائص الجمالية لنظم الكلم قال: «... إنك لن تعلم فى شىء من الصناعات علماً تمر فيه وتحلى حتى تكون ممن يعرف الخطأ فيها من الصواب ويفصل بين الإساءة والإحسان بل حتى تفاضل بين الإحسان والإحسان وتعرف طبقات المحسنين. وإذا كان هذا هكذا علمت أنه لا يكفى فى علم الفصاحة أن تنصب لها قياساً ما وأن تصفها وصفاً مجملا وتقول فيها قولا مرسلا بل لا تكون من معرفتها فى شىء حتى تفصل القول وتحصل. وتضع اليد على الخصائص التى تعرض فى نظم الكلم وتعدها واحدة واحدة وتسميها شيئاً شيئاً وتكون معرفتك معرفة الصنع الحاذق الذى يعلم علم كل خيط من الإبريسم الذى فى الديباج وكل قطعة من القطع المنجورة فى الباب المقطع وكل آجرة من الآجر الذى فى البناء البديع وإذا نظرت إلى الفصاحة هذا النظر وطلبتها هذا الطلب احتجت إلى صبر على التأمل ومواظبة على التدبر وإلى همة تأبى لك أن تقنع إلا بالتمام وأن تربع إلا بعد بلوغ الغاية»[٤].

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٤٠.
(٢) دلائل الإعجاز ص ٤٤.
(٣) دلائل الإعجاز ص ٥١.
(٤) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى ص ٣٠ و ٣١.

وليست من وسيلة لوضع اليد على الخصائص الجمالية لنظم الكلم والاستعانة بها فى بحث إعجاز القرآن وتعرف سماته الجمالية إلا بالاستقراء الأدبى : «وإن الجهة التى منها يقف والسبب الذى به يعرف استقراء كلام العرب وتتبع أشعارهم والنظر فيها»[١].

السبيل إذن إلى معرفة الإعجاز القرآنى هو السبيل الأدبى . ولكن فيم إعجاز القرآن ، إن وجه الإعجاز القرآنى عند الجرجانى فى النظم والتأليف[٢]. وما النظم ؟ « . . . ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التى نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التى رسمت لك فلا تخل بشىء منها وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر فى وجه كل باب وفروقه هذا هو السبيل فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معانى النحو قد أصيب به موضعه ووضع فى حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه واستعمل فى غير ما ينبغى له فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم أو فساده أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معانى النحو وأحكامه ووجدته يدخل فى أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه»[٣]. « فإن قيل : قولك إلا النظم يقتضى إخراج ما فى القرآن من الاستعارة وضروب المجاز من جملة ما هو به معجز وذلك مالا مساغ له . قيل : ليس الأمر كما ظننت بل ذلك يقتضى دخول الاستعارة ونظائرها فيما هو به معجز وذلك لأن هذه المعانى التى هى الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من بعدها من مقتضيات النظم وعنها يحدث وبها يكون لأنه لا يتصور أن يدخل شىء منها فى الكلم وهى أفراد لم يتوخ فيما بينها حكم من أحكام

---

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى ص ٣٣ .

(٢) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى ص ٢٩٩ و ٣٠٠ .

(٣) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى ص ٦٤ و ٦٥ .

النحو»[١] أنه لا غاية لمزايا النظم يقف عندها ؛ يقول عبد القاهر :

وإذ قد عرفت أن مدار أمر النظم على معانى النحو وعلى الوجوه والفروق التى من شأنها أن تكون فيه فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها ونهاية لا تجد لها ازدياداً بعدها ثم اعلم أن ليست المزية بواجبة لها فى أنفسها ومن حيث هى على الإطلاق ولكن تعرض بسبب المعانى والأغراض التى يوضع لها الكلام ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض تفسير هذا أنه ليس إذا راقك التنكير « فى سؤدد» من قوله : « تنقل فى خلق سؤدد » وفى « دهر » من قوله: « فلو أذنبا دهر » فإنه يجب أن يروقك أبداً وفى كل شىء . . . وإنما سبيل هذه المعانى سبيل الأصباغ التى تعمل منها الصور والنقوش فكما أنك ترى الرجل قد تهدى فى الأصباغ التى عمل منها الصورة والنقش فى ثوبه الذى نسج إلى ضرب من التخير والتدبر فى أنفس الأصباغ وفى مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجه لها وترتيبه إياها إلى ما لم يهتد إليه صاحبه فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب وصورته أغرب كذلك حال الشاعر والشاعر فى توخيهما معانى النحو ووجوهه التى علمت أنها محصول النظم »[٢].

وقد لا يقبل هذا الرأى الجمالى قوم أولا يجدون فيه مقنعاً فيعود الجرجانى للرد عليهم مبيناً أنه يجب أن يتوافر أولا ذوق أدبى وإحساس فنى بالجمال « إنهم يروننا ندعى المزية والحسن لنظم كلام من غير أن يكون فيه من معانى النحو شىء يتصور أن يتفاضل الناس فى العلم به ويروننا لا نستطيع أن نضع اليد من معانى النحو ووجوهه على شىء نزعم أن من شأن هذا أن يوجب المزية لكل كلام يكون فيه بل يروننا ندعى المزية لكل ما ندعيها له من معانى النحو ووجوهه وفروقه فى موضع دون موضع وفى كلام دون كلام وفى الأقل دون الأكثر وفى الواحد من الألف فإذا رأوا الأمر كذلك دخلتهم الشبهة وقالوا كيف يصير المعروف مجهولا ومن أين يتصور أن يكون للشىء فى كلام مزية

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٠٠ و ٣٠١ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٦٩ و ٧٠ .

عليه فى كلام آخر بعد أن تكون حقيقته فيهما حقيقة واحدة ؟ فإذا رأوا التنكير يكون فيما لا يحصى من المواضع ثم لا يقتضى فضلا ولا يوجب مزية اتهمونا فى دعوانا ما ادعيناه لتنكير الحياة فى قوله تعالى: ( ولكم فى القصاص حياة ) [١٧٩البقرة]من أن له حسناً ومزيةوأن فيه بلاغة عجيبة وظنوه وهماً منا وتخيلا ولسنا نستطيع من كشف الشبهة فى هذا عنهم وتصوير الذى هو الحق عندهم ما استطعنا فى نفس النظم لأنا ملكنا فى ذلك أن نضطرهم إلى أن يعلموا صحة ما نقول وليس الأمر فى هذا كذلك فليس الداء فيه بالهين ولا هو بحيث إذا رمت العلاج منه وجدت الإمكان فيه مع كل أحد مسعفاً والسعى منجحاً لأن المزايا التى تحتاج أن تعلمهم مكانها وتصور لها شأنها أمور خفية ومعان روحانية أنت لا تستطيع أن تنبه السامع لها وتحدث له علماً بها حتى يكون مهيئاً لإدراكها وتكون فيه طبيعة قابلة لها ويكون له ذوق وقريحة يجد لهما فى نفسه إحساساً بأن من شأن هذه الوجوه والفروق أن تعرض فيها المزية على الجملة وممن إذا تصفح الكلام وتدبر الشعر فرق بين موقع شىء منها وشىء »[1].

هذا إذن هو منهج الجرجانى فى بحث الإعجاز ، منهج قائم أولا على التربية الفنية تربية الذوق والإحساس والشعور بممارسة النصوص الأدبية ونقدها والتعرف إلى مواطن القبح والجمال فيها فإذا ما ألف الذوق النقد مارس النص القرآنى باحثاً عن الجمال فيه فى نظمه حيث يكمن سر إعجازه وما النظم إلا معانى النحو التى ألفت بين كلماته وآخت .

---

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى ص ٤١٩ و ٤٢٠ .

الفصل الثانى

# منهج الزمخشرى فى بيان إعجاز القرآن

إن أسس التربية الفنية التى تهدى إليها عبد القاهر الجرجانى قد أثمرت ثمرتها عند الزمخشرى فهو منذ مطلع تفسيره ينبه إليها ويشير بل يجعلها عمدة تفسيره الذى يفسر . فالفقيه عنده والمتكلم ثم القصصى أو الإخبارى والواعظ والنحوى واللغوى هؤلاء جميعاً لن ينهضوا لتفسير القرآن وإنما الذى ينهض له من أخذ حظه من علمين مختصين بالقرآن يكشفان عن جمال معانيه ومزيتها وهما علما المعانى والبيان فمن أنضج معرفته بهما وبعثته همته على استيضاح معجزة الرسول ثم أخذ من سائر العلوم حظه وبرز فى علم الإعراب الذى به تدرك المزية الجمالية فى نظم الكلم وخبر أساليب النظم والنثر ودفع إلى مضايقهما ولمس مواضع الجمال فيها — من كان هذا شأنه فهو المفسر حقًّا . يقول الزمخشرى : «إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح من غرائب نكت يلطف مسلكها ومستودعات أسرار يدق سلكها علم التفسير الذى لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذى علم كما ذكر الجاحظ فى كتاب نظم القرآن . فالفقيه وإن برز على الأقران فى علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا فى صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ ، والواعظ وإن كان من الحسن البصرى أوعظ ، والنحوى وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوى وإن علك اللغات بقوة لحييه؛ لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ولا يغوص على شىء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعانى وعلم البيان؛ وتمهل فى ارتيادهما آونة وتعب فى التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همة فى معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة

رسول الله بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ ، جامعاً بين أمرين : تحقيق وحفظ، كثير المطالعات طويل المراجعات قد رجع زماناً ورُجع إليه وردّ وَرُدَّ عليه ، فارساً فى علم الإعراب مقدماً فى حملة الكتاب وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها مشتعل القريحة وقادها يقظان النفس دراكاً للمحة وإن لطف شأنها منتبهاً على الرمزة وإن خفى مكانها لا كزّاً جاسياً ولا غليظاً جافياً متصرفاً ذا دراية بأساليب النظم والنثر مرتاضاً غير ريض بتلقيح بنات الفكر قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف وكيف ينظم ويرصف طالما دفع إلى مضايقه ووقع فى مداحضه ومزالقه »[١]

وهو بهذه الروح يعرض لبيان إعجاز القرآن .

وإذن فيم الإعجاز عند الزمخشرى ؟ إنه كتاب معجز من جهتين من جهة إعجاز نظمه ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب[٢] ويقول مرة ثانية عند الآية : (فاعلموا أنما أُنزِل بعلم الله ) [١٤هود ] أى أنزل ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله من نظم معجز للخلق وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليه[٣] .

## ( ا ) الإخبار بالغيب :

الزمخشرى إذن يرى أن « صدق الإخبار عن الغيوب معجزة»[٤] ويشرح عند الآيتين : ( وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ) [٢٣ ، ٢٤البقرة] يشرح عندهما لم

---

( ١ ) تفسير الكشاف جـ ١ ص٣ . وهو فى به رهذا ناظر إلى عبد القاهر إذ يقول ص ٢٣٦ من الدلائل « . . ومن عادة قوم ممن يتعاطى التفسير بغير علم أن توهموا أبدا فى الألفاظ الموضوعة على المجاز والتمثيل أنها على ظواهرها فيفسدوا المعنى بذلك ويبطلوا الغرض ويمنعوا أنفسهم والسامع منهم العلم بموضع البلاغة وبمكان الشرف وناهيك بهم إذا هم أخذوا فى ذكر الوجوه وجعلوا يكثرون فى غير طائل هناك ترى ما شئت من باب جهل قد فتحوه وزند ضلالة قد قدحوا به» .

( ٢ ) الكشاف جـ ١ ص ٤٢٤ .

( ٣ ) الكشاف جـ ١ ص ٤٣٧ .

( ٤ ) الكشاف جـ ٢ ص ٣٨٥ .

كانت الإخبار عن الغيوب معجزة يقول فإن قلت من أين لك أنه إخبار بالغيب على ما هو به حتى يكون معجزة ؟ قلت : لأنهم لو عارضوه بشيء لم يمتنع أن يتواصفه الناس ويتناقلوه إذ خفاء مثله فيما عليه مبنى العادة محال لا سيما والطاعنون فيه أكثف عدداً من الذابين عنه فحين لم ينقل علم أنه إخبار بالغيب على ما هو به فكان معجزة[١] .

ثم يمضى الزمخشرى إلى الآى التى أخبرت بغيب . . مثلا الآيتين : ( قل إن كانت لكُمُ الدار الآخرة عندَ الله خالصةً من دون الناس فتمنوا الموت إن كُنتم صادقين . ولن يتمنوه أبداً بما قدَّمت أيديهم . . )[٩٤، ٩٥البقرة] من المعجزات لأنه إخبار بالغيب وكان كما أخبر به كقوله ( ولن تفعلوا )[٢] .

ويقول فى الآية : ( الذين جعلوا القرآن عضين ) [ ٩١الحجر] . . . وهو من الإعجاز لأنه إخبار بما سيكون وقد كان[٣] .

ويقول فى الآية : (يأيها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتى اللهُ بقوم يحبهم ويحبونه ) [ ٥٤المائدة] . . وهو من الكائنات التى أخبر عنها فى القرآن قبل كونها[٤] .

وفى الآيات : ( آلم، غُلبت الروم ، فى أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبهم سيغْلِبون ) [١—٣الروم] يقول : وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوة وأن القرآن من عند الله لأنها إنباء عن علم الغيب الذى لا يعلمه إلا الله[٥] .

ويقول فى الآى : ( هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليُظْهِرَهُ على الدِّين كُلِّه ) [٢٨الفتح] . . . وفى هذه الآية تأكيد لما وعد من الفتح

---

( ١ ) الكشاف جـ ١ ص ٤٢ . والآيتان ٢٣ و ٢٤ من سورة البقرة .

( ٢ ) الكشاف جـ ١ ص ٦٧ . والآيتان ٩٤ و ٩٥ من سورة البقرة .

( ٣ ) الكشاف جـ ١ ص ٥٢٠ .

( ٤ ) الكشاف جـ ١ ص ٢٦٢ .

( ٥ ) الكشاف جـ ٢ ص ١٨٤ .

وتوطين لنفوس المؤمنين على أن الله تعالى سيفتح لهم البلاد ويقيض لهم من الغلبة على الأقاليم ما يستقلون إليه فتح مكة[١] .

(ب) النظم :

ذلك إذن هو الشق الأول من الإعجاز القرآنى ، أما الشق الثانى فهو النظم . يقول الزمخشرى : «النظم . . . هو أم إعجاز القرآن والقانون الذى وقع عليه التحدى ومراعاته أهم ما يجب على المفسر»[٢] .

ويقول عن أسرار الجمال القرآنى : « وهذه الأسرار والنكت لا يبرزها إلا علم النظم وإلا بقيت محتجبة فى أكمامها »[٣] وهو فى مسألة النظم يتابع عبد القاهر الجرجانى بل إنه أول من طبق رأى عبد القاهر الجمالى فى إعجاز القرآن تطبيقاً عمليًّا وعلى نطاق واسع يشمل سور القرآن جميعها كما سنرى عما قليل . وقد ألمع الزمخشرى إلى عبد القاهر معترفاً بإمامته حيث يقول معجباً : « وقد ملح الإمام عبد القاهر فى قوله لبعض من يأخذ عنه :

ماشئت من زهزهـــة والفتى بمصقلا باد يُسقّى الزروع »[٤]

غير أن هذه هى الإلماعة الوحيدة الصريحة إلى عبد القاهر . ولكن حين عرض الزمخشرى لنظم القرآن عرض إليه من ناحية الجمال الحادث عن أحكام معانى النحو مما لا يدع سبيلا لشك فى أن الزمخشرى إنما يتأثر فى بحثه الإعجاز القرآنى يتأثر عبد القاهر وإن كانت بعد للزمخشرى المعتزلى شخصيته فى البحث الإعجازى .

وسنتتبع هنا الزمخشرى فى مبحثه فى نظم القرآن متأثرين فى ذلك آخر ما استقر عليه — إلى يومنا — الاصطلاح فى الدرس البلاغى من تقسيمات ثلاثة وهى :

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٣٨٧ .
(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٢٤ .
(٣) الكشاف جـ ٢ ص ٣٠٢ .
(٤) الكشاف جـ ٢ ص ٤٠٦ .

المعانى ــ البيان ــ البديع .

وليكن أول ما نعرض له :

## أولا : مبحث الزمخشرى فى علم المعانى القرآنى :

### اسم الإشارة :

فى التعبير بأسماء الإشارة أسرار جمالية . فالإشارة « بذلك » قد تكون للتعظيم والإشارة بهذه تكون للتحقير بحسب السياق والمقام .فى الآية : ( قالت فذلكن ) ولم تقل فهذا وهو حاضر رفعاً لمنزلته فى الحسن واستحقاق أن يحب ويفتتن به وربأ بجاله واستبعاداً لمحله [١] ويقول أيضاً الزمخشرى فى الآية : ( وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ) هذه فيها ازدراء للدنيا وتصغير لأمرها [٢] .

### اسم الموصول :

فى استعمال الأدوات الموصولة مزايا منها أن استبدال أداة العاقل بغير العاقل تكون للتحقير مثل ما فى الآية : ( له ما فى السموات والأرض كل له قانتون ) فإن قلت : كيف جاء بما التى لغير أولى العلم مع قوله : ( قانتون ) ؟ قلت : هو كقوله سبحانه ما سخركن لنا وكأنه جاء ( بما ) دون ( من ) تحقيراً لهم وتصغيراً لشأنهم [٣] .

### الجملة الاسمية :

وإذا ما كانت الجملة الاسمية آكد من الفعلية ، فإن الزمخشرى يتبين عناصر أخرى للتأكيد فى الآية : ( واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز

---

( ١ ) الكشاف جـ ١ ص ٤٧١ .

( ٢ ) الكشاف جـ ٢ ص ١٨٣ .

( ٣ ) الكشاف جـ ١ ص ٧٣ .

عن والده شيئاً ) فإن قلت : قوله ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً وارد على طريق من التوكيد لم يرد عليه ما هو معطوف عليه ؟ قلت : الأمر كذلك لأن الجملة الاسمية آكد من الفعلية وقد انضم إلى ذلك قوله ( هو ) وقوله ( مولود ) والسبب فى مجيئه على هذا السنن أن الخطاب للمؤمنين وعليهم قبض آباؤهم على الكفر وعلى الدين الجاهلى فأريد حسم أطماعهم وأطماع الناس فيهم أن ينفعوا آباءهم فى الآخرة وأن يشفعوا لهم وأن يغنوا عنهم من الله شيئاً فلذلك جىء به على الطريق الآكد ومعنى التوكيد فى لفظ ( المولود ) أن الواحد منهم لو شفع للأب الأدنى الذى ولد منه لم تقبل شفاعته فضلا أن يشفع لمن فوقه من أجداده لأن الولد يقع على الولد وولد الولد بخلاف المولود فإنه لمن ولد منك[١].

**تقديم الخبر على المبتدأ :**

وتقديم الخبر هنا ذو مزية فى التأكد من مضمونه والركون إليه فى الآية : ( وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم ) فإن قلت : أى فرق بين وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم وبين النظم الذى جاء عليه ؟ قلت : فى تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم وفى تصيير ضميرهم اسماً لأن وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم فى أنفسهم أنهم فى عزة ومنعة لا يبالى معها بأحد يتعرض لهم أو يطمع فى معازتهم وليس ذلك فى قولك وظنوا أن حصونهم تمنعهم[٢] .

**التثنية :**

استخدام التثنية قد يكون أبلغ وآكد فى تقدير المعنى المراد فى الآية : ( بل يداه مبسوطتان ) إن قلت : لم ثنيت اليد فى قوله تعالى: (بل يداه مبسوطتان ) وهى مفردة فى ( يد الله مغلولة ) قلت : ليكون رد قولهم وإنكاره أبلغ وأدل على إثبات غاية السخاء له ونفى البخل عنه وذلك

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ١٩٩ .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٤٤٥ .

أن غاية ما يبذله السخى بماله من نفسه أن يعطيه بيديه جميعاً فبنى المجاز على ذلك[١] .

**التأنيث :**

لكل لفظة مؤنثة دلالاتها من ضعف ولين ورخاوة مرة وهنا يستوحى الزمخشرى الجمال النفسى المعنوى فى التعبير بلفظ التأنيث فى الآية : ( أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره ) فإن قلت : لم قيل كاشفات وممسكات على التأنيث قلت : أنثهن وكن إناثاً وهن اللات والعزى ومناة قال الله تعالى : (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى ) ، ليضعفها ويعجزها زيادة تضعيف وتعجيز عما طالبهم به من كشف الضر وإمساك الرحمة لأن الأنوثة من باب اللين والرخاوة كما أن الذكورة من باب الشدة والصلابة كأنه قال : الإناث اللاتى هن اللات والعزى ومناة أضعف مما تدعون لهن وأعجز وفيه تهكم أيضاً[٢].

**النسب :**

فى زيادة النسب قوة للفعل المسندة إليه مثل : الآية: ( فاتخذتموهم سخرياً ) . . . فى ياء النسب زيادة قوة فى الفعل كما قيل الخصوصية فى الخصوص[٣] .

**التنكير :**

ويسفر عن حسن التنكير المومئ إلى الندرة والقلة فى الآية : ( وتعيها أذن واعية ) فإن قلت : لم قيل أذن واعية على التوحيد والتنكير ؟ قلت : للإيذان بأن الوعاة فيهم قلة ولتوبيخ الناس بقلة من يعى

---

( ١ ) الكشاف جـ ١ ص ٢٦٧ .
( ٢ ) الكشاف جـ ٢ ص ٣٠٠ .
( ٣ ) الكشاف جـ ٢ ص ٨٠ .

منهم للدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله فهى السواد الأعظم عند الله وأن ما سواها لا يبالى بهم باله وإن ملئوا ما بين الخافقين[١]

**الإضمار :**

وللإضمار سر جمالى يشير إلى معانى الفخامة والشهرة حتى ليغنى عن التصريح .فى الآية : (قل من كان عدوًّا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدًى وبشرى للمؤمنين) الضمير فى (نزله) للقرآن ونحو هذا الإضمار أعنى إضمار ما لم يسبق ذكره فخامة لشأن صاحبه حيث يجعل لفرط شهرته كأنه يدل على نفسه ويكتفى عن اسمه الصريح بذكر شىء من صفاته[٢] .

**الفعل :**

(ا) واستعمال الأفعال فى القرآن فيه وجوه من الحسن يعالجها الزمخشرى . فالفعل اللازم يدع للفكر مجالاً كى يسبح فى الآية (لنبين لكم) . . . وورود الفعل غير معدًى إلى المبين إعلام بأن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وعلمه ما لا يكتنهه الذكر ولا يحيط به الوصف[٣] .

(ب) واستعمال الفعل الماضى فيما هو مستقبل يعنى تحققه والقطع بكونه. فى الآية: (ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله) فإن قلت : لم قيل (ففزع) دون «فيفزع» ؟ قلت : لنكتة وهى الإشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة واقع على أهل السموات والأرض لأن الفعل الماضى يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به والمراد فزعهم عند النفخة الأولى حين يصعقون[٤] .

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٤٨٥ .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٦٨ .
(٣) الكشاف جـ ٢ ص ٥٧ .
(٤) الكشاف جـ ٢ ص ١٥٣ .

(ج) واستخدام المضارع فى فعل مضى لاستحضار ذلك الفعل والتنفير منه. يقول الزمخشرى فى الآية: (فريقاً كذّبوا وفريقاً يقتلون) فإن قلت: لم جىء بأحد الفعلين ماضياً والآخر مضارعاً؟ قلت جىء يقتلون على حكاية الحال الماضية استفظاعاً للقتل واستحضاراً لتلك الحال الشنيعة للتعجيب منها[1]. أو قد يدل على الاستمرار مثل الآية: (فتصبح الأرض مخضرة) فإن قلت: هلا قيل فأصبحت ولم صرف إلى لفظ المضارع؟ قلت: لنكتة فيه وهى إفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان[2] يقول أو يستحضر الفعل الماضى فى صورة المضارع لتتأمله العقول لما فيه من فضل مزية. يقول فى الآية: (والله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها) فإن قلت: لم جاء فتثير على المضارعة دون ما قبله وما بعده؟ قلت: ليحكى الحال التى تقع فيها إثارة الرياح السحاب وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تهم المخاطب أو غير ذلك[3]

**اسم الفاعل :**

واستعمال اسم الفاعل دون صيغة النسب توحى إليه تحليلا تصويرياً جمالياً فى الآية: (يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت) فإن قلت: لم قيل مرضعة دون مرضع؟ قلت: المرضعة التى هى فى حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبى والمرضع التى من شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع فى حال وصفها به فقيل مرضعة ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة[4].

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٢٧٠.

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٦٦.

(٣) الكشاف جـ ٢ ص ٢٣٩.

(٤) الكشاف جـ ٢ ص ٥٦ (فى هامش ابن المنير: مرضع على النسب ومرضعة على أصل اسم الفاعل والفرق بينهما أن ورود على النسب لا يلاحظ فيه حدوث الصفة المشتقة منها ولكن مقتضاه أنه موصوف بها وعلى غير النسب يلاحظ حدوث الفعل وخروج الصفة عليه).

فزية اسم الفاعل كما نرى أنه يقصد الفعل المشتق منه من ناحية ثم إنه متصف بما يفعل من ناحية أخرى. وهذا آكد فى تصوير الفعل .

**حذف المفعول به :**

ويبين الجمال الكامن فى حذف المفعول به الذى يذهب العقل فيه مذاهب ويكون غايته من ثم هنا التوبيخ فى الآية : ( فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ) ومفعول تعلمون متروك كأنه قيل وأنتم من أهل العلم والمعرفة والتوبيخ فيه آكد أى أنتم العرافون المميزون ثم إن ما أنتم عليه فى أمر ديانتكم من جعل الأصنام لله أنداداً هو غاية الجهل ونهاية سخافة العقل [١].

**البدل :**

وهو يرى فى البدل جمالا معنوياً مفاده أنه تأكيد وتكرير فضيلته فضيلة المفسر والتفسير ، والتفصيل بعد الإجمال .

عرض للجمال الكامن وراء البدل فى الآية : (ولأبويه لكل واحد منهما السدس ) ولكل واحد منهما بدل من لأبويه بتكرير العامل . . . فإن قلت : فهلا قيل ولكل واحد من أبويه السدس وأى فائدة فى ذكر الأبوين أولا ثم فى الإبدال منهما ؟ قلت : لأن فى الإبدال والتفصيل بعد الإجمال تأكيداً وتشديداً كالذى تراه فى الجمع بين المفسر والتفسير [٢] وكذلك يقول فى الآية : ( صراط الذين أنعمت عليهم ) بدل من الصراط المستقيم وهو فى حكم تكرير العامل كأنه قيل اهدنا الصراط المستقيم اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم كما قال : ( الذين استضعفوا لمن آمن منهم ) . فإن قلت : ما فائدة البدل وهلا قيل اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم ؟ قلت : فائدته التوكيد لما فيه من التثنية والتكرير والإشعار بأن الطريق المستقيم بيانه وتفسيره صراط المسلمين ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة على أبلغ وجه وآكده [٣] .

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٣٩ .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ١٩٥ .
(٣) الكشاف جـ ١ ص ٩ .

وهو يحمل هذه الأساليب المؤكدة ويكشف عن حسنها فى الآية التشريعية : ( ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ) فى هذا الكلام أنواع من التوكيد والتشديد منها قوله ولله على الناس حج البيت يعنى أنه حق واجب لله فى رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه والخروج من عهدته ومنها أنه ذكر الناس ثم أبدل عنه من استطاع إليه سبيلا . وفيه ضربان من التأكيد : أحدهما أن الإبدال تثنية للمراد وتكرير له والثانى أن الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال إيراد له فى صورتين مختلفتين ومنها قوله : ( ومن كفر ) مكان ومن لم يحج تغليظاً على تارك الحج . . . ومنها ذكر الاستغناء عنه وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان ومنها قوله : (عن العالمين ) وإن لم يقل عنه وما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة ولأنه يدل على الاستغناء الكامل فكان أدل على عظم السخط الذى وقع عبارة عنه[1].

**النداء :**

استخدام أداة « يأيها » للنداء فيه ضروب من التأكيد تستوقف الزمخشرى فى الآية : ( يأيها الناس اعبدوا ربكم ) ثم يجرى حكمه فى استعمالها فى الأسلوب القرآنى كله على وجه استقراه هو فيه . وأى وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام كما أن ذو والذى وصلتان إلى الوصف بأسماء الأجناس ووصف المعارف بالجمل وهو اسم مبهم مفتقر إلى ما يوضحه ويزيل إبهامه فلابد أن يردفه اسم جنس أو ما يجرى مجراه يتصف به حتى يتضح المقصود بالنداء فالذى يعمل فيه حرف النداء هو أى والاسم التابع له صفته . . . وفى هذا التدرج من الإبهام إلى التوضيح ضرب من التأكيد والتشديد وكلمة التنبيه المقحمة بين الصفة وموصوفها لفائدتين معاضدة حرف النداء ومكاتفته بتأكيد معناه ووقوعها عوضاً

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ١٥٨ .

مما يستحقه أى من الإضافة . فإن قلت : لم كثر فى كتاب الله النداء على هذه الطريقة ما لم يكثر فى غيره ؟ قلت : لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهيه وعظاته وزواجره ووعده ووعيده واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم وغير ذلك مما أنطق به كتابه أمور عظام وخطوب جسام ومعان عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم عنها غافلون فاقتضت أن ينادوا بالآكد الأبلغ[١] .

## أسلوب الإيجاز :

وحين يعرض الزمخشرى لأسلوب الإيجاز فى القرآن نراه معنيًّا بالإشارة إلى ما أوجز فحسب دون أن يومئ إلى موضع الحسن فى ذلك الأسلوب يقول فى الآية : ( هدى للمتقين ) فإن قلت : فهلا قيل هدى للضالين ؟ قلت : لأن الضالين فريقان فريق علم بقاؤهم على الضلالة وهم المطبوع على قلوبهم وفريق علم أن مصيرهم إلى الهدى فلا يكون هدى للفريق الباقين على الضلالة فبقى أن يكون هدى لهؤلاء فلو جىء بالعبارة المفصحة عن ذلك لقيل هدى للصائرين إلى الهدى بعد الضلال فاختصر الكلام بإجرائه على الطريقة التى ذكرنا فقيل هدى للمتقين[٢] ويقول فى الآية : ( وما كنت من الشاهدين ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر ) . . . وما كنت شاهداً لموسى وما جرى عليه ولكنا أوحيناه إليك فذكر سبب الوحى الذى هو إطالة الفترة ودل به على المسبب على عادة الله عز وجل فى اختصاراته[٣] .

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٣٧ .

(٢) الكشاف جـ ١ ص ١٩ .

(٣) الكشاف جـ ٢ ص ١٦٥ .

## أسلوب التكرار :

### ( ١ ) غايته :

وأسلوب التكرار من صور البيان القرآنى التى يطيل الزمخشرى وقفته الجمالية المستقصية عندها : ويقرر الزمخشرى المعانى النفسية الكامنة وراء التكرير فى القرآن فيقول : فإن قلت ما فائدة تكرير قوله : ( فذوقوا عذابى ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ) ؟ قلت : فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادكاراً واتعاظاً وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظاً إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه وأن يقرع لهم العصا مرات ويقعقع لهم الشن تارات لئلا يغلبهم اللهو ولا تستولى عليهم الغفلة وهكذا حكم التكرير كقوله : ( فبأى آلاء ربكما تكذبان ) عند كل نعمة عدّها فى سورة الرحمن . وقوله : ( ويل يومئذ للمكذبين ) عند كل آية أوردها فى سورة المرسلات وكذلك تكرير الأنباء والقصص فى أنفسها لتكون تلك العبرة حاضرة للقلوب مصورة للأذهان مذكورة غير منسية فى كل أوان [١] .

ويقول الزمخشرى عن التكرير فى القرآن أيضاً : « مذهب كل تكرير جاء فى القرآن فمطلوب به تمكين المكرر فى النفوس وتقريره»[٢] .

والزمخشرى يكشف عن المعنى النفسى لأسلوب التكرير فى الآى : (يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم.يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ) إعادة النداء عليهم استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد وتطرية الإنصات لكل حكم نازل وتحريك منهم لئلا يفتروا ويغفلوا عن تأملهم وما أخذوا به عند حضور مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأدب الذى المحافظة عليه تعود عليهم بعظيم الجدوى فى دينهم[٣] .

---

( ١ ) الكشاف جـ ٢ ص ٤٢٢ .
( ٢ ) الكشاف جـ ١ ص ١٤ .
( ٣ ) الكشاف جـ ٢ ص ٣٨٩ .

ويسفر عن الغاية النفسية فى تكرير القصص ؛ فنى سورة الشعراء تصدر كل قصة بتكذيب كل أمة من الأمم رسولها المبعوث إليها ثم تختم بأن الله عزيز رحيم . فمثلا ( كذب أصحاب الأيكة المرسلين . . . ) وتنتهى بالآية : ( وإن ربك لهو العزيز الرحيم ) وفى ذلك يقول الزمخشرى : فإن قلت : كيف كرر فى أول كل قصة وآخرها ما كرر ؟ قلت : كل قصة منها كتنزيل برأسه وفيها من الاعتبار مثل ما فى غيرها فكانت كل واحدة منها تدلى بحق فى أن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها وأن تختم بما اختتمت به ولأن فى التكرير تقريراً للمعانى فى الأنفس وتثبيتاً لها فى الصدور ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديد ما يراد تحفظه منها وكلما زاد ترديده كان أمكن له فى القلب وأرسخ فى الفهم وأثبت للذكر وأبعد من النسيان ولأن هذه القصص طرقت بها آذان وقر عن الإنصات للحق وقلوب غلف عن تدبره فكوثرت بالوعظ والتذكير وروجعت بالترديد والتكرير لعل ذلك يفتح أذناً أو يفتق ذهناً أو يصقل عقلا طال عهده بالصقل أو يجلو فهماً قد غطى عليه تراكم الصدأ[1] .

فجماع غاية التكرير عنده : تمكين المعانى فى النفوس ، وبسطها بالإيضاح والتفسير لتوقظ الغافل أو تثير الفكر الراكد .

**(ب) ضروبه :**

( ا ) والتكرير قد يكون للتخصيص . مثلا آية : ( إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ) فإن قلت : فلو قيل ولكن أكثرهم فلا يتكرر ذكر الناس ؟ قلت : فى هذا التكرير تخصيص لكفران النعمة بهم وأنهم هم الذين يكفرون فضل الله ولا يشكرونه كقوله : ( إن الإنسان لكفور ) ( إن الإنسان لربه لكنود ) ( إن الإنسان لظلوم كفار )[2] .

( ب ) ضرب ثان من ضروب التكرير فى القرآن وهو تكرير التهجين :

---

( ١ ) الكشاف جـ ٢ ص ١٣١ ، ١٣٢ .

( ٢ ) الكشاف جـ ٢ ص ٣٢٠ .

(ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون) فى إسناد عمل السيئة إليهم مكرراً فضل تهجين لحالهم وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين[١] ونفس المعنى فى الآية: (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء) وفى تكرير (الذين ظلموا) زيادة فى تقبيح أمرهم وإيذان بأن إنزال الرجز عليهم لظلمهم[٢].

(حـ) نوع ثالث من أنواع التكرير، هو التهويل. آية: (ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود) وألا وتكرارها مع النداء على كفرهم والدعاء عليهم تهويل لأمرهم وتفظيع له وبعث على الاعتبار بهم والحذر من مثل حالهم[٣].

(د) ضرب رابع من ضروب التكرير، هو الابتهال. الآى: (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار. ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار. ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد) وتكرير ربنا من باب الابتهال وإعلام بما يوجب حسن الإجابة وحسن الإثابة من احتمال المشاق فى دين الله والصبر على صعوبة تكاليفه وقطع لأطماع الكسالى المتمنين عليه وتسجيل على من لا يرى الثواب موصولا إليه بالعمل بالجهل والغباوة[٤] وهو فى كلماته الأخيرة هذه يغمز المتفائلين بالنسبة للجزاء من أهل السنة.

(هـ) وهناك معانى نفسية أخرى للتكرار يعالجها الزمخشرى منها دفع الوهم. يقول فى الآى: (إنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة

---

(١) نفس الموضع السابق.

(٢) الكشاف جـ ١ ص ٥٨.

(٣) الكشاف جـ ١ ص ٤٤٧.

(٤) الكشاف جـ ١ ص ١٨٤.

الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ) وكرر بإذن الله دفعاً لوهم من توهم فيه اللاهوتية[١] ومنها التأكيد والتشديد، ويقول فى الآى : ( ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ) وهذا التكرير لتأكيد أمر القبلة وتشديده لأن النسخ من مظان الفتنة والشبهة وتسويل الشيطان والحاجة إلى التفصلة بينه وبين البداء فكرر عليهم ليثبتوا ويعزموا ويجدّوا ولأنه نيط بكل واحد ما لم ينط بالآخر فاختلفت فوائدها[٢] .

وقد يكون التأكيد ادعاءً فالزمخشرى يقول فى الآية : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ) وفى تكرير الباء أنهم ادعوا كل واحد من الإيمانين على صفة الصحة والاستحكام[٣] .

وقد يكون التكرير للتمييز ويقول أيضاً فى الآيتين : ( أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ) وفى تكرير أولئك تنبيه على أنهم كما ثبتت لهم الأثرة بالهدى فهى ثابتة لهم بالفلاح فجعلت كل واحدة من الأثرتين فى تميزهم بها عن غيرهم بالمثابة التى لو انفردت كفت مميزة على حيالها[٤] .

والزمخشرى يرى التكرير فى بنية اللفظة وجرسها الصوتى تكريراً للمعنى أيضاً يقول فى الآية : ( فكبكبوا فيها ) والكبكبة تكرير الكب جعل التكرير فى اللفظ دليلا على التكرير فى المعنى كأنه إذا ألقى فى جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر فى قعرها[٥] .

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ١٤٧ .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٨٢ .
(٣) الكشاف جـ ١ ص ٢٤ .
(٤) الكشاف جـ ١ ص ٢٠ .
(٥) الكشاف جـ ٢ ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

**أسلوب الالتفات :**

أسلوب رابع جرى عليه البيان القرآنى هو أسلوب الالتفات . والزمخشرى يبين عن حسن هذا الأسلوب فى القرآن الذى بالتفنن فيه يطرى نشاط السامع يقول فى الآية : (إياك نعبد وإياك نستعين) . . . الالتفات فى علم البيان قد يكون من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة ومن الغيبة إلى التكلم كقوله تعالى : ( حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم ) وقوله تعالى : ( والله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه ) وقد التفت امرؤ القيس ثلاث التفاتات فى ثلاثة أبيات :

تطاول ليلك بالأثمد ... ونام الخلى ولم ترقد
وبات وباتت له ليلة ... كليلة ذى العائر الأرمد
وذلك من نبأ جاءنى ... وخبرته عن أبى الأسود

وذلك على عادة افتنانهم فى الكلام وتصرفهم فيه ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد وقد تختص مواقعه بفوائد ومما اختص به هذا الموضع إنه لما ذكر الحقيقة بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة فى المهمات فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل إياك يامن هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة لا نعبد غيرك ولا نستعينه ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذى لا تحق العبادة إلا به[1] ومن استعمالات الالتفات ما يرمى إلى غاية التفخيم والتعظيم مثل الآية : (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيماً ) ... لم يقل واستغفرت لهم وعدل عنه إلى طريقة الالتفات تفخيماً لشأن رسول الله

---

(١) الكشاف ج ١ ص ٨ ، ٩ .

صلى الله عليه وسلم وتعظيماً لاستغفاره وتنبيهاً على أن شفاعة من اسمه الرسول من الله بمكان[١] .

## أسلوب الوصل والاستئناف :

عرض الزمخشرى لهذا الأسلوب البلاغى المتفنن فى القرآن ورأى أن الاستئناف أقوى من الوصل بحرف الوصل . يقول فى الآية : ( يا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب ) فإن قلت : أى فرق بين إدخال الفاء ونزعها فى ( سوف تعلمون ) ؟ قلت : إدخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ونزعها وصل خفى تقديرى بالاستئناف الذى هو جواب لسؤال مُقدر كأنهم قالوا : فماذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت ؟ فقال : سوف تعلمون . فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف للتفنن فى البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف وهو باب من أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه[٢] .

## الاعتراض والاستفهام التقريريان :

التقرير معنى من معانى نظم القرآن والزمخشرى يدل عليها فى القرآن فحسب دون بحث جمالى فيها ، فالتقرير قد يكون بالجمل الاعتراضية يقول : فإن قلت : كيف موقع قوله : ( وأتوا به متشابهاً ) من نظم الكلام ؟ قلت : هو كقولك فلان أحسن بفلان ، ونعم ما فعل ورأى من الرأى كذا وكان صواباً ومنه قوله تعالى : ( وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ) وما أشبه ذلك من الجمل التى تساق فى الكلام معترضة للتقرير[٣] .

كما يكون التقرير بالاستفهام : يقول الزمخشرى فى الآية : ( هل عسيتم

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٢١٣ .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٤٥٣ ، ٤٥٤ .
(٣) الكشاف جـ ١ ص ٤٥ .

أن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا) . . . أراد بالاستفهام التقرير وتثبيت أن المتوقع كائن وأنه صائب فى توقعه كقوله تعالى: (هل أتى على الإنسان) معناه التقرير[١]

## إيحاءات اللفظ :

### أولاً :

(ا) والزمخشرى متنبه لإيحاءات الألفاظ وما تلقيه من ظلال معنوية ونفسية وهو حتى فى الآيات التشريعية نراه يستجلى جمالها ؛ فيتلبث عنـد (يتربصن) و (بأنفسهن) محللاً آية : (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) فإن قلت : فما معنى الإخبار عنهن بالتربص ؟ قلت : هو خبر فى معنى الأمر وأصل الكلام وليتربص المطلقات وإخراج الأمر فى صورة الخبر تأكيد للأمر وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص فهو يخبر عنه موجوداً . . . وبناؤه على المبتدأ مما زاده أيضاً فضل تأكيد ولو قيل ويتربص المطلقات لم يكن بتلك الوكادة . فإن قلت : هلا قيل يتربصن ثلاثة قروء كما قيل تربص أربعة أشهر وما معنى ذكر الأنفس ، قلت: فى ذكر الأنفس تهييج لهن على التربص وزيادة بعث لأن فيه ما يستنكفن منه فيحملهن على أن يتربصن وذلك أن أنفس النساء طوامح إلى الرجال فأمرهن أن يقمعن أنفسهن ويغلبنها على الطموح ويجبرنها على التربص[٢] .

(ب) ويستشف الأسرار الجمالية للتعبير القرآنى بولدها وبولده . فى الآية : (ولا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده) فإن قلت : كيف قيل بولدها وبولده ، قلت : لما نهيت المرأة عن المضارة أضيف إليها الولد استعطافاً لها عليه وأنه ليس بأجنبى منها فمن حقها أن تشفق عليه وكذلك الوالد[٣] .

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ١١٦ .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ١٠٨ .
(٣) الكشاف جـ ١ ص ١١٢ .

( حـ ) وللفظتى ( كسبت ) و ( اكتسبت ) ظلال نفسية فى الآية : ( لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ) فإن قلت : لم خص الخير بالكسب والشر بالاكتساب ؟ قلت : فى الاكتساب اعتمال فلما كان الشر مما تشتهيه النفس وهى منجذبة إليه وأمارة به كانت فى تحصيله أعمل وأجد فجعلت لذلك مكتسبة فيه ولما لم تكن كذلك فى باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال[١] .

( د ) ويتغلغل الزمخشرى إلى الأعماق النفسية فى التعبير بلفظتى ( طبن ) و ( شىء ) فى الآية التشريعية : ( وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شىء منه نفساً فكلوه هنيئاً ) . . . وفى الآية دليل على ضيق المسالك فى ذلك ووجوب الاحتياط حيث بنى الشرط على طيب النفس فقيل : فإن طبن . . ولم يقل . فإن وهبن أو سمحن إعلاماً بأن المراعى هو تجافى نفسها عن الموهوب طيبة . وقيل : فإن طبن لكم عن شىء منه ولم يقل فإن طبن لكم عنها بعثاً لهن على تقليل الموهوب[٢] .

( هـ ) ويستشف المعانى النفسية وراء لفظة يصنعون فى تعبير الآية : ( لبئس ما كانوا يصنعون ) كأنهم جعلوا آثم من مرتكبى المناكير لأن كل عامل لا يسمى صانعاً ولا كل عمل يسمى صناعة حتى يتمكن فيه ويتدرب وينسب إليه وكان المعنى فى ذلك أن مواقع المعصية معه الشهوة التى تدعوه إليها وتحمله على ارتكابها أما الذى ينهاه فلا شهوة معه فى فعل غيره فإذا فرط فى الإنكار كان أشد حالا من المواقع[٣] .

( و ) ويلحظ حال المخاطبين ونفسيتهم والأسلوب الذى ينبغى أن يجادلوا به فيقول فى الآيات التى تتحدث عن النبى صالح : ( قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته ) قيل إن كنت على بينة من ربى بحرف الشك وكان على يقين أنه على بينة لأن خطابه للجاحدين فكأنه قال : قدروا أنى على بينة من ربى وأنى نبى على الحقيقة

---

( ١ ) الكشاف جـ ١ ص ١٣٤ .
( ٢ ) الكشاف جـ ١ ص ١٩٠ .
( ٣ ) الكشاف جـ ١ ص ٢٦٦ .

وانظروا إن تابعتكم وعصيت ربي فى أوامره فمن يمنعنى من عذاب الله [١] .

( ز ) وللتعبير بلفظة ( وجه ) ظلال نفسية فى الآية : ( يخل لكم وجه أبيكم ) فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه [٢] .

( ح ) وكذلك لفظة ( كل ) فى الآية : ( يأتوك بكل سحار عليم ) وعارضوا قوله : ( إن هذا لساحر ) بقولهم : بكل سحار فجاءوا بكلمة الإحاطة وصفة المبالغة ليطامنوا من نفسه ويسكنوا بعض قلقه [٣] .

( ط ) والآية : ( لا ترى فيها عوجاً ) يعرض الزمخشرى للفظة «العوج» فيها وما تلقيه من ظلال معنوية ، وطريف منه المثال المستشهد به فى تقرير أمر جمالى إذ يقول : فإن قلت : قد فرقوا بين العِوَج والعَوَج فقالوا العِوَج بالكسر فى المعانى والعَوَج بالفتح فى الأعيان والأرض عين فكيف صح فيها المكسور العين ؟ قلت : اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع فى وصف الأرض بالاستواء والملاسة ونفى الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسويتها وبالغت فى التسوية على عينك وعيون البصراء من الفلاحة واتفقتم على أنه لم يبق فيها اعوجاج قط ثم استعملت رأى المهندس فيها وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية لعثر فيها على عوج فى غير موضع لا يدرك ذلك بحاسة البصر ولكن بالقياس الهندسى فنفى الله عز وعلا ذلك العوج الذى دق ولطف عن الإدراك اللهم إلا بالقياس الذى يعرفه صاحب التقدير والهندسة وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعانى فقيل فيه عِوَج بالكسر [٤] .

---

( ١ ) الكشاف جـ ١ ص ٤٤٧ .

( ٢ ) الكشاف جـ ١ ص ٤٦٣ .

( ٣ ) الكشاف جـ ٢ ص ١٢٣ .

( ٤ ) الكشاف جـ ٢ ص ٣٤ ، ٣٥ .

**ثانياً :**

والزمخشرى يرى فى بناء الكلمة جمالا معنوياً نفسياً . مثلا آية : (وإن الدار الآخرة لهى الحيوان) وفى بناء الحيوان زيادة معنى ليس فى بناء الحياة وهى ما فى بناء فعلان من الحركة والاضطراب . . . والحياة حركة كما أن الموت سكون فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة مبالغة فى معنى الحياة ولذلك اختيرت على الحياة فى هذا الموضع المقتضى للمبالغة [١] .

وكذلك الآية : (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة . .) المقنطرة مبنية من لفظ القنطار للتوكيد كقولهم ألف مؤلّفة وبدرة مبدرة [٢] .

**ثالثاً :**

(ا) والزمخشرى يعرض للألفة المعنوية والنفسية بين الألفاظ المنظومة فيقول فى الآية : (كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا) فإن قلت : كيف قيل مع الإضاءة (كلما) ؟ ومع (الإظلام) إذا ؟ قلت : لأنهم حراص على وجود ما همهم به معقود من إمكان المشى وتأتيه فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها وليس كذلك التوقف والتحبس [٣] .

(ب) ويعرض لاقتران الناس بالحجارة فى الآية : (فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) يقول : فإن قلت : لم قرن الناس بالحجارة وجعلت الحجارة معهم وقوداً ؟ قلت : لأنهم قرنوا بها أنفسهم فى الدنيا حيث نحتوها أصناماً وجعلوها لله أنداداً وعبدوها من دونه . . . ونحوه ما يفعله بالكانزين الذين جعلوا ذهبهم وفضّتهم عدة وذخيرة فشحوا بها ومنعوها

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ١٨٣ .

(٢) الكشاف جـ ١ ص ١٣٨ .

(٣) الكشاف جـ ١ ص ٣٦ .

من الحقوق حيث يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم[١].

(حـ) ويقول فى اقتران الأفواه والقلوب فى الآية: (يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم) . . . وذكر الأفواه مع القلوب تصوير لنفاقهم وأن إيمانهم موجود فى أفواههم معدوم فى قلوبهم خلاف صفة المؤمنين فى مواطأة قلوبهم لأفواههم[٢] .

(د) وكذلك يقول فى الجمع بين الحذر والأسلحة فى الآية : (وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم) فإن قلت : كيف جمع بين الأسلحة وبين الحذر فى الأخذ ؟ قلت : جعل الحذر وهو التحرز والتيقظ آلة يستعملها الغازى فلذلك جمع بينه وبين الأسلحة فى الأخذ وجعلا مأخوذين[٣] .

(هـ) ويقول معللاً لاستخدام « اللام » تارة و « فى » أخرى فى الآية الفقهية (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) فإن قلت : لم عدل عن اللام إلى (فى) فى الأربعة الأخيرة ؟ قلت : للإيذان بأنهم أرسخ فى استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره لأن فى للوعاء فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنة لها ومصبا وذلك لما فى فك الرقاب من الكتابة أو الرق أو الأسر وفى فك الغارمين من الغرم من التخليص والإنقاذ ولجمع الغازى الفقير أو المنقطع فى الحج بين الفقر والعبادة وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال وتكرير « فى » فى قوله: (وفى سبيل الله) (وابن السبيل) فيه فضل ترجيح لهذين على الرقاب والغارمين[٤].

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٤٢ .

(٢) الكشاف جـ ١ ص ١٧٦ .

(٣) الكشاف جـ ١ ص ٢٢٦ .

(٤) الكشاف جـ ١ ص ٤٠٠ .

التحليل الجمالى للنظم :

( ا ) والزمخشرى يحلل جماليًّا المعانى النفسية الكامنة وراء نظم الكلام . فى الآية : ( إن الذين يغضون أصواتهم عندرسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ) يقول : وهذه الآية بنظمها الذى رتبت عليه من إيقاع الغاضين أصواتهم اسماً لإن المؤكدة وتصيير خبرها جملة من مبتدأ وخبر معرفتين معاً والمبتدأ اسم الإشارة واستئناف الجملة المستودعة ما هو جزاؤهم على عملهم وإيراد الجزاء نكرة مبهماً أمره ناظرة فى الدلالة على غاية الاعتداد والارتضاء لما فعل الذين وقروا رسول الله صلى الله عليه وسلم من خفض أصواتهم وفى الإعلام بمبلغ عزة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدر شرف منزلته وفيها تعريض بعظيم ما ارتكب الرافعون أصواتهم واستيجابهم ضد ما استوجب هؤلاء .

ويتابع الزمخشرى قوله فى الآى بعد ما سبق : ( إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ) . . . فورود الآية على النمط الذى وردت عليه فيه ما لا يخفى على الناظر من بينات إكبار محل رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجلاله منها مجيئها على النظم المسجل على الصائحين بالسفه والجهل لما أقدموا عليه . ومنها لفظ الحجرات وإيقاعها كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه . ومنها المرور على لفظها بالاقتصار على القدر الذى تبين به ما استنكر عليهم . ومنها التعريف باللام دون الإضافة ومنها أن شفع ذمهم باستحفائهم واستركاك عقولهم وقلة ضبطهم لمواضع التمييز فى المخاطبات تهويناً للخطب على رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلية له وإماطة لما تداخله من إيحاش تعجرفهم وسوء أدبهم .

والزمخشرى يستعيننا أن نتذوق معه حلاوة الآى فيكر مرة أخرى عليها منذ أول السورة مستجلياً جديداً فى جمالها كاشفاً عن خبىء من أسرار حسنها يقول : وهلم جرًّا من أول السورة إلى آخر هذه الآية . فتأمل كيف ابتدئ بإيجاب أن تكون الأمور التى تنتمى إلى الله ورسوله متقدمة على الأمور كلها من غير

حصر ولا تقييد ثم أردف ذلك النهى عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر كأن الأول بساط للثانى ووطاء لذكره ثم ذكر ما هو ثناء على الذين تحاموا ذلك فغضوا أصواتهم دلالة على عظيم موقعه عند الله ثم جيء على عقب ذلك بما هو أطم وهجنته أتم من الصياح برسول الله صلى الله عليه وسلم فى حال خلوته ببعض حرماته من وراء الجدر كما يصاح بأهون الناس قدراً لينبه على فظاعة ما أجروا إليه وجسروا عليه لأن من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول حتى خاطبه جلة المهاجرين والأنصار بأخى السرار كان صنيع هؤلاء من المنكر الذى بلغ من التفاحش مبلغاً ومن هذا وأمثاله يقتطف ثمر الألباب وتقتبس محاسن الآداب[1] .

( ب ) والآى : (ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ) بعد إذ يورد الزمخشرى وجوهاً فى إعرابها يقول نائياً بنا عن رياضة النحو سالكاً بنا وادى الجمال الأسلوبى للقرآن ناظماً معانيها فى سلك معنوى واحد : والذى هو أرسخ عرقاً فى البلاغة أن يضرب عن هذا المحال صفحاً وأن يقال إن قوله ألم جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها . وذلك الكتاب جملة ثانية ولا ريب فيه ثالثة وهدى للمتقين رابعة وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق وذلك لمجيئها متآخية آخذاً بعضها بعنق بعض فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها وهلم جرًّا إلى الثالثة والرابعة بيان ذلك أنه نبه أولا على أنه الكلام المتحدى به ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال فكان تقريراً لجهة التحدى وشدًّا من أعضاده ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب فكان شهادة وتسجيلا بكماله لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة وقيل لبعض العلماء فيم لذتك فقال : فى حجة تتبختر اتضاحاً وفى شبهة تتضاءل افتضاحاً ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين فقرر بذلك كونه يقيناً لا يحوم الشك حوله وحقًّا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ثم لم تخل كل واحدة من الأربع

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٣٩٢ .

بعد أن رتبت هذا الترتيب الأنيق ونظمت هذا النظم السرى من نكتة ذات جزالة فى الأولى الحذف والرمز إلى الغرض بألطف وجه وأرشقه وفى الثانية ما فى التعريف من الفخامة وفى الثالثة ما فى تقديم الريب على الظرف وفى الرابعة الحذف ووضع المصدر الذى هو هدى موضع الوصف الذى هو هاد وإيراده منكراً والإيجاز فى ذكر المتقين زادنا الله اطلاعاً على أسرار كلامه وتبيناً لنكت تنزيله وتوفيقاً للعمل بما فيه[1] .

(ح) ويحلل جماليًّا نظم الآيات متوقفاً عند تعبيراتها وكاشفاً عن مضامينها البلاغية : ( واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقاً نبيًّا إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سويًّا يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيًّا يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليًّا) . . . انظر حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورطاً فيه من الخطأ العظيم والارتكاب الشنيع الذى عصا فيه أمر العقلاء وانسلخ عن قضية التمييز ومن الغباوة التى ليس بعدها غباوة كيف رتب الكلام معه فى أحسن اتساق وساقه أرشق مساق مع استعمال المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن منتصحاً فى ذلك بنصيحة ربه عز وعلا . . . وذلك أنه طلب منه أولا العلة فى خطئه طلب منبه على تماديه موقظ لإفراطه وتناهيه لأن المعبود لو كان حيًّا مميزاً سميعاً بصيراً مقتدراً على الثواب والعقاب نافعاً ضاراً إلا أنه بعض الخلق لاستخف عقل من أهّله للعبادة ووصفه بالربوبية ولسجل عليه بالغى المبين والظلم العظيم وإن كان أشرف الخلق وأعلاهم منزلة كالملائكة والنبيين . قال الله تعالى : ( ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ) وذلك أن العبادة هى غاية التعظيم فلا تحق إلا لمن له غاية الإنعام وهو الخالق الرازق المحيى المميت المثيب المعاقب الذى منه أصول النعم وفروعها فإذا وجهت

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ١٧ .

إلى غيره وتعالى علواً كبيراً أن تكون هذه الصفة لغيره لم يكن إلا ظلماً وعتواً وغياً وكفراً وجحوداً وخروجاً عن الصحيح النير إلى الفاسد المظلم فما ظنك بمن وجه عبادته إلى جماد ليس به حس ولا شعور فلا يسمع يا عابده ذكرك له وثناؤك عليه ولا يرى هيآت خضوعك وخشوعك له فضلا أن يغنى عنك بأن تستدفعه بلاء فيدفعه أو تسنح لك حاجة فيكفيكها . ثم ثنى بدعوته إلى الحق مترفقاً به متلطفاً فلم يسم أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق ولكنه قال: إن معى طائفة من العلم وشيئاً منه ليس معك وذلك علم الدلالة على الطريق السوى فلا تستنكف وهب أنى وإياك فى مسير وعندى معرفة بالهداية دونك فاتبعنى أنجك من أن تضل وتتيه . ثم ثلث بتثبيطه ونهيه عما كان عليه بأن الشيطان الذى استعصى على ربك الرحمن الذى جميع ما عندك من النعم من عنده وهو عدوك الذى لا يريد بك إلا كل هلاك وخزى ونكال وعدو أبيك آدم وأبناء جنسك كلهم هو الذى ورَّطك فى هذه الضلالة وأمرك بها وزينها لك فأنت إن حققت النظر عابد الشيطان إلا أن إبراهيم عليه السلام لإمعانه فى الإخلاص ولارتقاء همته فى الربانية لم يذكر من جنايتى الشيطان إلا التى تختص منهما برب العزة من عصيانه واستكباره ولم يلتفت إلى ذكر معاداته لآدم وذريته كأن النظر فى عظم ما ارتكب من ذلك غمر فكره وأطبق على ذهنه . ثم ربَّع بتخويفه سوء العاقبة وبما يجره ما هو فيه من التبعة والوبال ولم يخل ذلك من حسن الأدب حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق له وأن العذاب لاصق به ولكنه قال: أخاف أن يمسك عذاب فذكر الخوف والمس ونكر العذاب وجعل ولاية الشيطان ودخوله فى جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب وذلك أن رضوان الله أكبر من الثواب نفسه وسماه الله تعالى المشهود له بالفوز العظيم حيث قال : ( ورضوان الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ) فكذلك ولاية الشيطان التى هى معارضة رضوان الله أكبر من العذاب نفسه وأعظم وصدَّر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله يا أبت توسُّلا إليه واستعطافاً . . . ولما أطلعه على سماحة صورة أمره وهدم مذهبه بالحجج القاطعة وناصحه المناصحة العجيبة

مع تلك الملاطفات أقبل عليه الشيخ بفظاظة الكفر وغلظة العناد فناداه باسمه ولم يقابل يا أبت بيا بنى وقدم الخبر على المبدأ فى قوله: ( أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم ) لأنه كان أهم عنده وهو عنده أعنى وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته وأن آلهته ما ينبغى أن يرغب عنها أحد[١] .

وواضح من هذا مدى ما يتمتع به الزمخشرى من نفس بلاغى طويل يمم عن اقتدار .

ثم هو يستعين ثقافته فى تحليله الجمالى للآى . يستعين ثقافته المنطقية فى الكشف عن وجوه الحسن فى الآية : ( ألم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك ) . . . هذا أسلوب صحيح محكم أثبت أولا أن تنزيله من رب العالمين وأن ذلك ما لا ريب فيه ثم أضرب عن ذلك إلى قوله: (أم يقولون افتراه) لأن أم هى المنقطعة الكائنة بمعنى بل والهمزة إنكاراً لقولهم وتعجيباً منه لظهور أمره فى عجز بلغائهم عن مثل ثلاث آيات منه ثم أضرب عن الإنكار إلى إثبات أنه الحق من ربك . ونظيره أن يعلل العالم فى المسألة بعلة صحيحة جامعة قد احترز فيها أنواع الاحتراز كقول المتكلمين النظر أول الأفعال الواجبة على الإطلاق التى لا يعرى عن وجوبها مكلف ثم يعترض عليه فيها ببعض ما وقع احترازه منه فيرده بتلخيص أنه احترز من ذلك ثم يعود إلى تقرير كلامه وتمشيته[٢] .

ويستعين ثقافته العلمية فى الكشف عن مزية نظم الآية: ( أوَ لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ) فإن قلت : لم قيل ويقبضن ولم يقل وقابضات ؟ قلت : لأن الأصل فى الطيران هو صف الأجنحة لأن الطيران فى الهواء كالسباحة فى الماء والأصل فى السباحة مد الأطراف وبسطها أما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك فجىء بما هو طار غير أصل بلفظ

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٨ ، ٩ .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٢٠٠ .

الفعل على معنى أنهن صافات ويكون منهن القبض تارة بعد تارة كما يكون من السابح[١]

**ثانياً : مبحث الزمخشري في البيان القرآني :**

وقد عرض الزمخشري في معالجته الجمالية لصور البيان القرآني ، ولكنه أخضع هذه المعالجة – إلى مدى كبير – لرأي المعتزلة اللغوي في : هل اللغة اصطلاح أم توقيف ؟ وابن تيمية يحدد تاريخ الخوض في هذه المسألة فيرى : أن مسألة القول بأن اللغة توقيف أو اصطلاح لم يقل بها أحد قبل أبي هاشم الجبائي إذ تنازع الأشعري وأبو هاشم في مبدأ اللغات فقال أبو هاشم: هي اصطلاحية . وقال الأشعري: هي توقيفية ثم خاض الناس بعدهما في هذه المسألة[٢] .

وقد حمل راية أهل السنة في هذا الرأي اللغوي ابن فارس الذي يكمن وراء رأيه اللغوي معتقد أهل الحديث أن الله خالق لأفعال عباده ، فهم يدينون بأن اللغة توقيف[٣] أما المعتزلة فيمثل رأيهم ابن جني وأبو علي الفارسي فيريان أنها اصطلاح وهما يرفضان المواضعة لأن «القديم سبحانه لا يجوز أن يوصف بأن يواضع أحداً على شيء إذ أن المواضعة لابد معها من إيماء وإشارة بالجارحة نحو المومأ إليه والمشار نحوه والقديم لا جارحة له فيصح الإيماء والإشارة منه[٤] فالقول بالاصطلاح يخدم رأي المعتزلة في التوحيد من ناحية والعدل أو حرية الإرادة من ناحية أخرى . والقول بالاصطلاح يخدم ناحية ثالثة بالغة الأهمية هي ناحية الاتساع اللغوي . فالمعتزلة يجوزون القلب بمعنى تسمية الثوب فرساً والفرس ثوباً . ويرون أيضاً أن اللفظ المشترك وهو اللفظ الواحد الدال

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٤٧٨ .

(٢) الإيمان لابن تيمية ص ٣٦ .

(٣) المزهر للسيوطي جـ ١ ص ٧ .

(٤) المزهر للسيوطي جـ ١ ص ٩ .

على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء ، يرون هذا اللفظ ممكن الوقوع لجواز أن يقع من واضعين بأن يضع أحدهما لفظاً لمعنى ثم يضعه الآخر لمعنى آخر ويشتهر ذلك اللفظ بين الطائفتين فى إفادته المعنيين[١] . والمعتزلة ويمثل رأيهم ابن جنى المعتزلى يأخذ بالاحتجاج باللغات على اختلافها لتمرن اللغة فى أيديهم وينقاد لهم تأويل النصوص . يقول ابن جنى : « اللغات على اختلافها كلها حجة »[٢] هذا بينا نرى ابن فارس السنى يقول بضد ذلك التوسع متنبهاً إلى استغلال اللغة لخدمة المذاهب الكلامية فهو يحرم الاحتجاج بها فى خلافهم فيقول : « لغة العرب يحتج بها فيما اختلف فيه إذا كان التنازع فى اسم أو صفة أو شىء مما تستعمله العرب من سننها فى حقيقة أو مجاز أو ما أشبه ذلك فأما الذى سبيله سبيل الاستنباط وما فيه لدلائل العقل مجال أو من التوحيد وأصول الفقه وفروعه فلا يحتج فيها بشىء من اللغة لأن موضوع ذلك على غير اللغات . فأما الذى يختلف فيه الفقهاء من قوله تعالى : ( أو لامستم النساء ) وقوله : (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) وقوله تعالى : ( فجزاء مثل ما قتل من النعم ) وقوله تعالى : (ثم يعودون لما قالوا ) فمنه ما يصلح الاحتجاج فيه بلغة العرب ومنه ما يوكل إلى غير ذلك »[٣] .

ويتبع التوسع اللغوى لدى المعتزلة استشهادهم بشعر المحدثين — بل إنا نرى من جاء فى عصر متأخر بعد هؤلاء المحدثين بقرون ثلاثة تقريباً وهو الزمخشرى نراه يستشهد بشعر من إنشائه ، يقول السيوطى : « ووقع فى كلام الزمخشرى وغيره الاستشهاد بشعر أبى تمام بل فى الإيضاح للفارسى ووجه بأن الاستشهاد بتقرير النقلة كلامهم وأنه لم يخرج عن قوانين العرب . وقال ابن جنى : يستشهد بشعر المولدين فى المعانى كما يستشهد بشعر العرب فى الألفاظ »[٤] .

---

(١) المزهر للسيوطى جـ ١ ص ٢١٧ .

(٢) المزهر للسيوطى جـ ١ ص ١٥٣ .

(٣) المزهر للسيوطى جـ ١ ص ١٥٤ .

(٤) المزهر للسيوطى جـ ١ ص ٣٧ .

وقمة هذا التوسع اللغوى تبين فى رأى المعتزلة فى تقسيم اللغة إلى حقيقة ومجاز . وهذا التقسيم كما يرى ابن تيمية اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة الأولى من الهجرة لم يتكلم به أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ولا أحد من الأئمة المشهورين فى العلم كمالك والثورى والأوزاعى وأبى حنيفة والشافعى بل ولا تكلم به أئمة اللغة والنحو كالخليل وسيبويه وأبى عمرو بن العلاء ونحوهم... وإنما هذا اصطلاح حادث والغالب أنه كان من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين[١]. أما أهل السنة ويمثلهم فى الرأى ابن فارس فيقول : « الحقيقة » الكلام الموضوع موضعه الذى ليس باستعارة ولا تمثيل ولا تقديم فيه ولا تأخير كقول القائل أحمد الله على نعمه وإحسانه وهذا أكثر الكلام وأكثر آى القرآن وشعر العرب على هذا»[٢] . وهو بهذا يريد أن اللغة — ومنها لغة القرآن — أكثرها حقيقة وهذا طبعى يكمن وراءه وقوف أهل السنة عند ظاهر النص القرآنى . بل إن من الأشعرية الذين أرادوا ليقفوا موقفاً وسطاً بين السنة والاعتزال من نفى المجاز فى لغة العرب وهو الإسفراييني[٣] وإن نفى ذلك عنه إمام الحرمين والغزالى[٤] .

فأما المعتزلة فيمثلهم ابن جنى الذى يقول : « الحقيقة ما أثر فى الاستعمال على أصل وضعه فى اللغة والمجاز ما كان بضد ذلك وإنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة وهى الاتساع والتوكيد والتشبيه. . . واعلم أن أكثر اللغة مع تأمله مجاز لا حقيقة.. . ووقوع التأكيد فى هذه اللغة أقوى دليلا على شيوع المجاز فيها»[٥] ويقول المرتضى المعتزلى : «وليس يجب أن

---

(١) الإيمان لابن تيمية ص ٣٥ .

(٢) المزهر للسيوطى جـ ١ ص ٢٠٧ .

(٣) المزهر للسيوطى جـ ١ ص ٢١٣ .

(٤) المزهر للسيوطى جـ ١ ص ٢١٥ .

(٥) المزهر للسيوطى جـ ١ ص ٢٠٧ — ٢١٠ .

تؤخذ العرب بالتحقيق فى كلامها فإن تجوزها واستعارتها أكثر »[1]

على كل حال فجوهر المسألة هو هذا أن المعتزلة ترى أن اللغة مجاز فى الأغلب وهم يدينون بالتوسع اللغوى فى التعبير ليلين قولهم تأويل النصوص و يطوع . ولهذا الرأى أثره وخطره فى مبحث الزمخشرى الجمالى حين يعرض لصور البيان القرآنى التى قد يعارض ظاهرها آراء المعتزلة المذهبية .

ولعل هذه الآية التى نسوق بعدُ تكشف لنا بجلاء قدر الجهد المبذول لمحاولة إخضاع نظم الآية ثم معناها من بعد للرأى الاعتزالى ، فى حرية الإرادة وهو حيثما دار فقطب رحاه المجاز أو الاتساع اللغوى . يعرض لنا الزمخشرى فى الآية : (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ) يعرض وجوهاً خمسة فى إسناد الختم إلى الله كلها مسخرة لخدمة فكرة المعتزلة عن العدل الإلهى يقول : « فإن قلت : ما معنى الختم على القلوب والأسماع وتغشية الأبصار ؟ قلت : لا ختم ولا تغشية ثم على الحقيقة وإنما هو من باب المجاز ويحتمل أن يكون من كلا نوعيه وهما الاستعارة والتمثيل» .

١ — أما الاستعارة فأن تجعل قلوبهم لأن الحق لا ينفذ فيها ولا يخلص إلى ضمائرها من قبل إعراضهم عنه واستكبارهم عن قبوله واعتقاده وأسماعهم لأنها تمجه وتنبو عن الإصغاء إليه وتعاف استماعه كأنها مستوثق منها بالختم وأبصارهم لأنها تجتلى آيات الله المعروضة ودلائله المنصوبة كما تجتليها أعين المعتبرين المستبصرين كأنما غطى عليها وحجبت وحيل بينها و بين الإدراك .

٢ — ( ا ) وأما التمثيل فأن تمثل حيث لم يستنفعوا بها فى الأغراض الدينية التى كلفوها وخلقوا من أجلها بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الاستنفاع بها بالختم والتغطية وقد جعل بعض المازنيين الحبسة فى اللسان والعى ختماً عليه فقال :

ختم الإله على لسان عذافر ... ختماً فليس على الكلام بقادر
وإذا أراد النطق خلت لسانه ... لحماً يحركه لصقر ناقر

---

( ١ ) أمالى المرتضى ج ٢ ص ٣٦ .

فإن قلت : فلم أسند الختم إلى الله تعالى وإسناده إليه يدل على المنع من قبول الحق والتوصل إليه بطرقه وهو قبيح والله يتعالى عن فعل القبيح علواً كبيراً لعلمه بقبحه وعلمه بغناه عنه وقد نص على تنزيه ذاته بقوله : وما أنا بظلام للعبيد ، وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين. إن الله لا يأمر بالفحشاء، ونظائر ذلك مما نطق به التنزيل ؟ قلت : القصد إلى صفة القلوب بأنها كالمختوم عليها وأما إسناد الختم إلى الله فلينبه على أن هذه الصفة فى فرط تمكنها وثبات قدمها كالشيء الخلقى غير العرضى ، ألا ترى إلى قولهم فلان مجبول على كذا ومفطور عليه يريدون أنه بليغ فى الثبات عليه وكيف يتخيل ما خيل إليك وقد وردت الآية ناعية على الكفار شناعة صنعتهم وسماجة حالهم ونيط بذلك الوعيد بعذاب عظيم .

( ب ) ويجوز أن تضرب الجملة كما هى وهى ختم الله على قلوبهم مثلا كقولهم سال به الوادى إذا هلك وطارت به العنقاء إذا أطال الغيبة وليس للوادى ولا للعنقاء عمل فى هلاكه ولا فى طول غيبته وإنما هو تمثيل مثلت حاله فى هلاكه بحال من سال به الوادى وفى طول غيبته بحال من طارت به العنقاء فكذلك مثلت حال قلوبهم فيما كانت عليه من التجافى عن الحق بحال قلوب ختم الله عليها نحو قلوب الأغتام التى هى فى خلوها عن النطق كقلوب البهائم أو بحال قلوب البهائم أنفسها أو بحال قلوب مقدر ختم الله عليها حتى لا تعى شيئاً ولا تفقه وليس له عز وجل فعل فى تجافيها عن الحق ونبوها عن قبوله وهو متعال عن ذلك .

٣ — ويجوز أن يستعار الإسناد فى نفسه من غير الله فيكون الختم مسنداً إلى اسم الله على سبيل المجاز وهو لغيره حقيقة. تفسير هذا أن للفعل ملابسات شتى يلامس الفاعل والمفعول به والمصدر والزمان والمكان والمسبب له فإسناده إلى الفاعل حقيقة وقد يسند إلى هذه الأشياء على طريق المجاز المسمى استعارة وذلك لمضاهاتها الفاعل فى ملابسة الفعل كما يضاهى الرجل الأسد فى جراءته فيستعار له اسمه فيقال فى المفعول به عيشة راضية وماء دافق وفى عكسه سيل

مفعم وفى المصدر شعر شاعر وذيل ذائل وفى الزمان نهاره صائم وليله قائم وفى المكان طريق سائر ونهر جار وأهل مكة يقولون صلى المقام وفى المسبب بنى الأمير المدينة وناقة ضبوث وحلوب. وقال:

« إذا رد عافى القدر من يستعيرها »

فالشيطان هو الخاتم فى الحقيقة أو الكافر إلا أن الله سبحانه لما كان هو الذى أقدره ومكنه أسند إليه الختم كما يسند الفعل إلى المسبب.

٤ — ووجه رابع وهو أنهم لما كانوا على القطع والبت ممن لا يؤمن ولا تغنى عنهم الآيات والنذر ولا تجدى عليهم الألطاف المحصلة والمقربة إن أعطوها لم يبق بعد استحكام العلم بأنه لا طريق إلى أن يؤمنوا طوعاً واختياراً طريق إلى إيمانهم إلا القسر والإلجاء وإذا لم تبق طريق إلا أن يقسرهم الله ويلجئهم ثم لم يقسرهم ولم يلجئهم لئلا ينتقض الغرض فى التكليف عبر عن ترك القسر والإلجاء وهى الغاية القصوى فى وصف لحاجهم فى الغى واستشرائهم فى الضلال والبغى.

٥ — ووجه خامس وهو أن يكون حكاية لما كان الكفرة يقولونه تهكماً به من قولهم قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ونظيره فى الحكاية والتهكم قوله تعالى: لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة [1].

### ١ — المجاز:

على أن الزمخشرى فى مثل هذه الآية يفسر المجاز ويبسط معناه ولا يبحث فيه من الناحية الجمالية إذ الناحية العقدية مستأثرة باهتمامه تدفعه إلى أن يشكل معنى النص وفق الرأى الاعتزالى. ونادر أن يقف مثل وقفته الجمالية. هذه فى الآية: (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٢١ — ٢٣.

مهتدين ) ، لأنها لا تصدم رأياً للمعتزلة أو تضاده ، والزمخشرى لا يشغل بالمجاز إلا حيث الآى التى يعارض ظاهرها مبادئ المعتزلة . يقول الزمخشرى فى تلك الآية السالفة : فإن قلت : كيف أسند الخسران إلى التجارة وهو لأصحابها؟ قلت هو من الإسناد المجازى وهو أن يسند الفعل إلى شىء يتلبس بالذى هو فى الحقيقة له كما تلبست التجارة بالمشترين . فإن قلت : هل يصح ربح عبدك وخسرت جاريتك على الإسناد المجازى ؟ قلت : نعم إذا دلت الحال وكذلك الشرط فى صحة رأيت أسداً وأنت تريد المقدام إن لم تقم حال دالة لم يصح . فإن قلت : هب أن شراء الضلالة بالهدى وقع مجازاً فى معنى الاستبدال فما معنى ذكر الربح والتجارة كأن ثم مبايعة على الحقيقة ؟ قلت : هذا من الصنعة البديعة التى تبلغ بالمجاز الذروة العليا وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ثم تقفى بأشكال لها وأخوات إذا تلاحقن لم تر كلاماً أحسن منه ديباجة وأكثر ماء ورونقاً وهو المجاز المرشح وذلك نحو قول العرب فى البليد كأن أذنى قلبه خطلا وإن جعلوه كالحمار ثم رشحوا ذلك دوماً لتحقيق البلادة ، فادعوا لقلبه أذنين وادعوا لهما الخطل ليمثلوا البلادة تمثيلا يلحقها ببلادة الحمار مشاهدة معاينة ونحوه :

ولما رأيت النسر عز ابن داية وعشش فى وكريه جاش له صدرى

لما شبه الشيب بالنسر والشعر الفاحم بالغراب أتبعه ذكر التعشيش والوكر ، ونحوه قول بعض فتاكهم فى أمه :

فما أمّ الردين وإن أدلت بعالمة بأخلاق الكرام
إذا الشيطان قصع فى قفاها تنفقناه بالحبل التوام

أى إذا دخل الشيطان فى قفاها استخرجناه من نافقائه بالحبل المثنى المحكم يريد إذا حردت وأساءت الخلق اجتهدنا فى إزالة غضبها وإماطة ما يسوء من خلقها استعار التقصيع أولا ثم ضم إليه التنفق ثم الحبل القوام فكذلك

لما ذكر سبحانه الشراء أتبعه ما يشاكله ويواخيه وما يكمل ويتم بانضمامه إليه تمثيلا لخسارهم وتصويراً لحقيقته[١] .

## ٢ ــ الكناية والتعريض :

صورة ثانية من صور البيان القرآنى يعرضها الزمخشرى فى مبحثه الجمالى تلك هى أسلوب الكناية والتعريض فى القرآن . يقول الزمخشرى مفرقاً بين الكناية والتعريض . فإن قلت : أى فرق بين الكناية والتعريض ؟ قلت : الكناية أن تذكر الشىء بغير لفظه الموضوع له كقولك طويل النجاد والحمائل لطول القامة وكثير الرماد للمضياف والتعريض أن تذكر شيئاً تدل به على شىء لم تذكره كما يقول المحتاج للمحتاج إليه : جئتك لأسلّم عليك ولأنظر إلى وجهك الكريم ولذلك قالوا :

* وحسبك بالتسليم منى تقاضيا *

وكأن إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض ويسمى التلويح لأنه يلوح منه ما يريده[٢] .

وهذا هو الزمخشرى يعرض فلسفياً لأسلوب الكناية فى الآية : (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم) فإن قلت : فما تقول فى كيف حيث كان إنكاراً للحال التى يقع عليها كفرهم ؟ قلت : حال الشىء تابعه لذاته فإذا امتنع ثبوت الذات تبعه امتناع ثبوت الحال فكان إنكار حال الكفر لأنها تبيع ذات الفكر وردفها إنكاراً لذات الكفر وثباتها على طريق الكناية وذلك أقوى لإنكار الكفر وأبلغ وتحريره أنه إذا أنكر أن يكون لكفرهم حال يوجد عليها وقد علم أن كل موجود لا ينفك عن حال وصفة عند وجوده ومحال أن يوجد بغير صفة من الصفات كان إنكاراً لوجوده على الطريق البرهانى[٣] .

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٣٠ ، ٣١ .

(٢) الكشاف جـ ١ ص ١١٣ .

(٣) الكشاف جـ ١ ص ٥٠ .

ويبين عن المزية المعنوية للتعريض فى الآية: (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ) . . وهذا من الكلام المنصف الذى كل من سمعه من موالٍ أو مناف قال لمن خوطب به قد أنصفك صاحبك وفى دَرْجه بعد تقدمة ما قدم من التقرير البليغ دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو فى الضلال المبين ولكن التعريض والتورية أفضل بالمجادل وأهجم به على الغلبة مع قلة شغب الخصم وفلّ شوكته بالهوينا . . . ومنه بيت حسان :

أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء [1]

ويسفر الزمخشرى عن المعانى النفسية التى يتضمنها أسلوب التعريض فى الآى : ( وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزّنى فى الخطاب . قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإنّ كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ) فإن قلت : لِمَ جاءت على طريقة التمثيل والتعريض دون التصريح ؟ قلت : لكونها أبلغ فى التوبيخ من قبل أن التأمل إذا أداه إلى الشعور بالمعرض به كان أوقع فى نفسه وأشد تمكناً من قلبه وأعظم أثراً فيه وأجلب لاحتشامه وحيائه وأدعى إلى التنبه على الخطأ فيه من أن يباده به صريحاً مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة ألا ترى إلى الحكماء كيف أوصوا فى سياسة الولد إذا وجدت منه هنة منكرة بأن يعرض له بإنكارها عليه ولا يصرح وأن تحكى له حكاية ملاحظة لحاله ومقياساً لشأنه فيتصور قبح ما وجد منه بصورة مكشوفة مع أنه أصون لما بين الوالد والولد من حجاب الحشمة [2].

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٢٣١ .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٢٨٠ .

### ٣ – التمثيل والتخييل :

أسلوب آخر من أساليب القرآن يعالجه الزمخشرى فى مبحثه ؛ أسلوب التمثيل والتخييل ، يقول شارحاً دور المثل فى التعبير الأدبى . . . ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفى فى إبراز خبيئات المعانى ورفع الأستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل فى صورة المحقق والمتوهم فى معرض المتيقن والغائب كأنه مشاهد . . . ولأمر ما أكثر الله فى كتابه المبين وفى سائر كتبه أمثاله وفشت فى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الأنبياء والحكماء . قال الله تعالى: (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) ومن سور الإنجيل سورة الأمثال[١] ويقول أيضاً: « التمثيل مما يكشف المعانى ويوضحها لأنه بمنزلة التصوير والتشكيل لها »[٢] .

وهذه نماذج لمعالجاته البيانية لهذا الأسلوب فى القرآن . يقول فى أسلوب الآية: ( إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا ) . . . ونحو هذا من الكلام كثير فى لسان العرب وما جاء القرآن إلا على طرقهم وأساليبهم من ذلك قولهم لو قيل للشحم أين تذهب لقال أسوى العوج وكم وكم لهم من أمثال على ألسنة البهائم والجمادات وتصور مقاولة الشحم محال ، ولكن الفرض أن السمن فى الحيوان مما يحسن قبيحه كما أن العجف مما يقبح حسنه فصور أثر السمن فيه تصويراً هو أوقع فى نفس السامع وهى به آنس وله أقبل وعلى حقيقته أوقف وكذلك تصوير عظم الأمانة وصعوبة أمرها وثقل محملها والوفاء بها . فإن قلت : قد علم وجه التمثيل فى قولهم للذى لا يثبت على رأى واحد أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى لأنه مثلت حاله فى تميله وترجحه بين الرأيين وتركه المضى على أحدهما بحال من يتردد فى ذهابه فلا يجمع رجليه للمضى فى وجهه وكل واحد من الممثل والممثل به شىء مستقيم داخل تحت الصحة والمعرفة وليس كذلك

(١) الكشاف جـ ١ ص ٣١ .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ١٨٩ .

ما فى هذه الآية فإن عرض الأمانة على الجماد وإباءه وإشفاقه محال فى نفسه غير مستقيم فكيف صح بناء التمثيل على المحال وما مثال هذا إلا أن تشبه شيئاً والمشبه به غير معقول ؟ قلت : الممثل به فى الآية وفى قولهم لو قيل للشحم أين تذهب وفى نظائره مفروض والمفروضات تتخيل فى الذهن كما المحققات مثلت حال التكليف فى صعوبته وثقل محمله بحاله المفروضة لو عرضت على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنها وأشفقن منها[1] .

ويشرح الزمخشرى أسلوب التمثيل والتخييل فى الآية : ( وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ) فيقول : من باب التمثيل والتخييل ، ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التى ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم وقال لهم : ألست بربكم وكأنهم قالوا : بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك ، وباب التمثيل واسع فى كلام الله تعالى ورسوله عليه السلام وفى كلام العرب ونظيره قوله تعالى : (إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ) ، ( فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ) وقوله :

إذا قالت الأنساع للبطن الحق قالت له ريح الصبا قرقار

ومعلوم أنه لا قول ثم وإنما هو تمثيل وتصوير للمعنى[2] .

ويبين المزية المعنوية فى أسلوب التمثيل فى الآية : (فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين) إذا مات رجل خطير قالت العرب فى تعظيم مهلكه : بكت عليه السماء والأرض وبكته الريح وأظلمت له الشمس وفى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من مؤمن مات فى غربة غابت فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض» . وقال جرير :

« تبكى عليك نجوم الليل والقمرا »

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٢) الكشاف جـ ١ ص ٣٥٩ .

وقالت الخارجية :

أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغة فى وجوب الجزع والبكاء عليه وكذلك ما يروى عن ابن عباس رضى الله عنه من بكاء مصلى المؤمن وآثاره فى الأرض ومصاعد عمله ومهابط رزقه فى السماء تمثيل ، ونفى ذلك عنهم فى قوله تعالى : ( فما بكت عليهم السماء والأرض ) فيه تهكم بهم وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقده فيقال فيه بكت عليه السماء والأرض[١] .

وهناك معنيان يوحى بهما أسلوب التمثيل فى الآية : ( يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ) وسؤال جهنم وجوابها من باب التخييل الذى يقصد به تصوير المعنى فى القلب وتثبيته وفيه معنيان : أحدهما أنها تمتلئ مع اتساعها وتباعد أطرافها حتى لا يسعها شىء ولا يُزاد على امتلائها لقوله تعالى : (لأملأن جهنم ) . والثانى أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها موضع للمزيد[٢] .

ويكشف الزمخشرى عن المعنى الذى يستهدفه أسلوب التمثيل فى الآية : ( لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ) هذا تمثيل وتخييل كما مر فى قوله تعالى : ( إنا عرضنا الأمانة) وقد دل عليه قوله : (وتلك الأمثال نضربها للناس) والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن وتدبر قوارعه وزواجره[٣] .

ويكشف عن وجه الحسن فى أسلوب التمثيل فى الآية : ( ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ) تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفظع وجه وأفحشه وفيه مبالغات شتى منها الاستفهام

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٣٦١ .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٤٠٥ .

(٣) الكشاف جـ ٢ ص ٤٤٩ .

الذى معناه التقرير ومنها جعل ما هو فى الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة، ومنها إسناد الفعل إلى أحدكم والإشعار بأن أحداً من الأخوين لا يحب ذلك ومنها أن لم يقتصر تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخاً ومنها أن لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعل ميتاً[١] .

والقرآن قد يعقب تمثيلا بتمثيل آخر فما مزيته ؟ يقول الزمخشرى عقب الآى الواصفة حال ذوى النفاق : ( مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون . . . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ... ) ثنى الله سبحانه فى شأنهم بتمثيل آخر ليكون كشفاً لحالهم بعد كشف وإيضاحاً عقب إيضاح وكما يجب على البليغ فى مظان الإجمال والإيجاز أن يجمل ويوجز فكذلك الواجب عليه فى موارد التفصيل والإشباع أن يفصل ويشبع أنشد الجاحظ :

ترمون بالخطب الطوال وتارة وحى الملاحظ خيفة الرقباء

ومما ثنى من التمثيل فى التنزيل قوله : (وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الأموات ) ، وألا ترى إلى ذى الرمة كيف صنع فى قصيدته :

أذاك أم نمش بالوشى أكرعه أذاك أم خاضب بالسعى مرتعه[٢]

**التعبيرات النفسية :**

والتعبيرات النفسية أو أساليب الإثارة الشعورية صورة من صور البيان القرآنى المتعددة ونريد به الأسلوب الذى يستوحيه الزمخشرى أحاسيس وخلجات نفسية . يقول مثلا فى الآية التى تتحدث عن الزانى والزانية : ( ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ) من باب التهييج وإلهاب الغضب لله ودينه[٣] ويقول فى الآية : ( الحق من ربك فلا تكن من الممترين )

---

( ١ ) الكشاف جـ ٢ ص ٣٩٨ .

( ٢ ) الكشاف جـ ١ ص ٣٣ .

( ٣ ) الكشاف جـ ٢ ص ٨٢ .

ونهيه عن الامتراء ، وجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون ممترياً من باب التهييج لزيادة الثبات والطمأنينة وأن يكون لطفاً لغيره[١] .

وهذه معانى يستوحيها من الآية : (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة) واردة عن غضب شديد ومنادية على سخط عظيم لأن القصم أفظع الكسر وهو الكسر الذى يبين تلاؤم الأجزاء بخلاف القصم وأراد بالقرية أهلها ولذلك وصفها بالظلم[٢] وما يقول فى الآى التالية منبئ عن استبطانه الأسرار النفسية للآى : (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم . يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ) . . لو فليت القرآن كله وفتشت عما أوعد به العصاة لم تر الله تعالى قد غلظ فى شىء تغليظه فى إفك عائشة رضوان الله عليها ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف واستعظام ما ركب من ذلك واستفظاع ما أقدم عليه ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفتنة كل واحد منها كاف فى بابه ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها حيث جعل القذفة ملعونين فى الدارين جميعاً وتوعدهم بالعذاب العظيم فى الآخرة وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذى هم أهله حتى يعلموا عند ذلك : ( أن الله هو الحق المبين ) فأوجز فى ذلك وأشبع وفصل وأجمل وأكد وكرر وجاء بما لم يقع فى وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه فى الفظاعة وما ذاك إلا لأمر[٣] .

ويستوحى الآى : (فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون أصطفى البنات على البنين ما لكم كيف تحكمون أفلا تذكرون أم لكم سلطان مبين فأتوا

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ١٤٩ .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٤١ .

(٣) الكشاف جـ ٢ ص ٨٧ . والآى من ٢٣ — ٢٥ من سورة النور .

بكتابكم إن كنتم صادقين ) هذه الآيات صادرة عن سخط عظيم وإنكار فظيع واستبعاد لأقاويلهم شديد وما الأساليب التى وردت عليها إلا ناطقة بتسفيه أحلام قريش وتجهيل نفوسها واستركاك عقولها مع استهزاء وتهكم وتعجيب من أن يخطر مخطر مثل ذلك على بال ويحدث به نفساً فضلا أن يجعله معتقداً ويتظاهر به مذهباً[١] .

**البيان القرآنى وأسلوب الشعر :**

والبيان القرآنى وهو نمط من بيان العرب — يجرى أحياناً على أسلوب الشعر : يجرى عليه فى مساءلة الرسوم : يقول الزمخشرى فى الآية : ( واسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ) ليس المراد بسؤال الرسل حقيقة السؤال لإحالته ولكنه مجاز عن النظر فى أديانهم والفحص عن مللهم هل جاءت عبادة الأوثان قط فى ملة من ملل الأنبياء وكفاه نظراً وفحصاً نظره فى كتاب الله المعجز المصدق لما بين يديه وإخبار الله فيه بأنهم يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً وهذه الآية فى نفسها كافية لا حاجة إلى غيرها والسؤال الواقع مجازاً عن النظر حيث لا يصح السؤال على الحقيقة كثير : منه مساءلة الشعراء الديار والرسوم والأطلال وقول من قال : سل الأرض من شق أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك فإن لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا [٢] .

ويجرى البيان القرآنى على أسلوب الشعر فى الفاصلة . يقول الزمخشرى فى الآية : ( وقالوا ربنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ) . . : يقال ضل السبيل وأضله إياه وزيادة الألف لإطلاق الصوت . جعلت فواصل الآى كقوافى الشعر وفائدتها الوقف والدلالة على أن الكلام قد انقطع وأن ما بعده مستأنف[٣] .

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٢٧٢ .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

(٣) الكشاف جـ ٢ ص ٢٢٢ .

## ثالثاً : البديع فى القرآن :

### ١ — الجناس :

والزمخشرى حين يرى أن القرآن مختص بعلمين هما المعانى والبيان فهو فى هذا يتأثر عبد القاهر الذى يرى مزية الكلام الجمالية فى معناه وأما اللفظ فهو خادم المعنى[١] ولهذا فلن نظفر هنا بأكثر من ثلاثة ضروب من أضرب البديع — على كثرتها — ؛ وليس الزمخشرى بهذا منكراً للصنعة البديعية فبها يحسن الكلام ولكنها قشر بجانب اللب ، وما اللب إلا الظلال المعنوية والنفسية التى يوحيها نظم الكلام ، فلننظر مثلا الجمال المعنوى الذى يوحيه بناء الفعل للمفعول فى الآية : (وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين ) .

يقول الزمخشرى : يقال بعد بعداً وبعداً إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ونحو ذلك ولذلك اختص بدعاء السوء ومجيء أخباره على الفعل المبنى للمفعول للدلالة على الجلالة والكبرياء وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر وتكوين مكون قاهر وأن فاعلها فاعل واحد لا يشارك فى أفعاله فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى ولا أن يقضى ذلك الأمر الهائل غيره ولا أن تستوى السفينة على متن الجودى وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره ، ولما ذكرنا من المعانى والنكت استفصح علماء البيان هذه الآية ورقصوا لها رءوسهم لالتجانس الكلمتين وهما قوله ابلعى وأقلعى وذلك وإن كان لا يخلى الكلام من حسن فهو كغير الملتفت إليه بإزاء تلك المحاسن التى هى اللب وما عداها قشور[٢] .

ويقول فى جناس الآية : ( وجئتك من سبأ بنبأ يقين ) وقوله من سبأ بنبأ

---

(١) نافح عبد القاهر وبالغ فى كتابه ( الدلائل ) عن قضية اللفظ والمعنى . انظر مثلا ص ٤٤ .

(٢) الكشاف جـ ١ ص ٤٤٣ .

من جنس الكلام الذى سماه المحدثون البديع وهو من محاسن الكلام الذى يتعلق باللفظ بشرط أن يجىء مطبوعاً أو يصنعه عالم بجوهر الكلام يحفظ معه صحة المعنى وسداده ولقد جاء ههنا زائداً على الصحة فحسن وبدع لفظاً ومعنى ألا ترى أنه لو وضع مكان ( بنبأ ) ( بخبر ) لكان المعنى صحيحاً وهو كما جاء أصح لما فى النبأ من الزيادة التى يطابقها وصف الحال [١] ويقول كذلك فى جناس الآية : (يا أسفى على يوسف) والتجانس بين لفظتى الأسف ويوسف مما يقع مطبوعاً غير متعمل فيملح ويبدع ونحوه اثاقلتم إلى الأرض . أرضيتم وهم ينهون عنه وينأون عنه . يحسبون أنهم يحسنون . من سبأ بنبأ [٢] .

**٢ — المشاكلة :**

ومن بديع القرآن المشاكلة . يقول الزمخشرى فى الآية : (إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) . . . يجوز أن تقع هذه العبارة فى كلام الكفرة فقالوا أما يستحى رب محمد أن يضرب مثلا بالذباب والعنكبوت فجاءت على سبيل المقابلة وإطباق الجواب على السؤال وهو فن من كلامهم بديع وطراز عجيب منه قول أبى تمام :

من مبلغ أفناء يعرب كلها  أنى بنيت الجار قبل المنزل

وشهد رجل عند شريح فقال : إنك لسبط الشهادة فقال الرجل : إنها لم تجعد عنى فقال لله بلادك وقبل شهادته فالذى سوغ بناء الجار وتجعيد الشهادة هو مراعاة المشاكلة ولولا بناء الدار لم يصح بناء الجار وسبوطه الشهادة لامتنع تجعيدها ولله در أمر التنزيل وإحاطته بفنون البلاغة وشعبها لا تكاد تستغرب منها فنًّا إلا عثرت عليه فيه على أقوم مناهجه وأسد مدارجه [٣] .

ويقول فى الآية : (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) المعنى تطهير الله

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ١٤٢ .

(٢) الكشاف جـ ١ ص ٤٨٤ .

(٣) المشاكلة يسميها أبو هلال العسكرى فى ( الصناعتين ص ٣٢٨ : ( المقابلة ) والنص من الكشاف جـ ١ ص ٤٦ .

لأن الإيمان يطهر النفوس والأصل فيه أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم فى ماء أصفر يسمونه المعمودية ويقولون هو تطهير لهم وإذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قال: الآن صار نصرانيًّا حقًّا فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم قولوا آمنا بالله وصبغنا الله بالإيمان صبغة لا مثل صبغتنا وطهرنا به تطهيراً لا مثل تطهيرنا أو يقول المسلمون صبغنا الله بالإيمان صبغة ولم نصبغ صبغتكم وإنما جيء بلفظة الصبغة على طريقة المشاكلة كما تقول لمن يغرس الأشجار اغرس كما يغرس فلان تريد رجلا يصطنع الكرم[١] .

### ٣ ــ أسلوب اللف :

ومن صور البديع القرآنى أيضاً أسلوب اللف والزمخشرى هنا يبحث جماليًّا أسلوب اللف فى الآية التشريعية: (ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون) . . . شرع ذلك يعنى جملة ما ذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر وأمر المرخص له بمراعاة عدة ما أفطر فيه ومن الترخيص فى إباحة الفطر فقوله : لتكملوا علة الأمر بمراعاة العدة . ولتكبروا علة ما علم من كيفية القضاء والخروج من عهدة الفطر ولعلكم تشكرون علة الترخيص والتيسير وهذا نوع من اللف لطيف المسلك لايكاد يهتدى إلى تبينه إلا النقاب المحدث من علماء البيان[٢].

ولا يرى الزمخشرى فى هذه الآية غير أنها من أسلوب اللف دون تبين لحسن : (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) زاوج بين الليل والنهار لأغراض ثلاثة ؛ لتسكنوا فى أحدهما وهو الليل ولتبتغوا من فضل الله فى الآخر وهو النهار ولإرادة شكركم . وقد سلكت بهذه الآية طريقة اللف[٣] .

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٧٨ .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٩١ .
(٣) الكشاف جـ ٢ ص ١٧٠ .

**بلاغة القرآن :**

والزمخشرى يرى أن فى القرآن بليغاً وأبلغ ؛ وهذا الإحساس الفنى لم يصوره الزمخشرى ولم يشبع القول فيه ولكنه كما سنرى مر به سريعاً. والزمخشرى يعلل لرأيه بأن فى القرآن بليغاً وأبلغ إذ يقول : ليس بواجب أن يجىء بالآكد فى كل موضع ولكن يجىء بالوكيد تارة وبالآكد أخرى كما يجىء بالحسن فى موضع وبالأحسن فى غيره ليفتن ، الكلام افتناناً [١] ولنتبع تطبيقه العملى لرأيه هذا...

يقول الزمخشرى فى الآية : (إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) . . .

وهذا تحذير آخر أبلغ من الأول إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم [٢] .

ويقول الزمخشرى فى الآية : (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم ) وهو أبلغ من قوله : ( إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته)[٣] فهو هنا يرسل الحكم إرسالا دون تفصيل لوجه العلو فى مرتبة البلاغة . وكذلك نراه يقول فى الآية : ( يصهر به ما فى بطونهم والجلود) . . . وهو أبلغ من قوله : (وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم)[٤] ويقول فى الآية : ( وإنا على ذهاب به لقادرون) . . وهو أبلغ فى الإيعاد من قوله : ( أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين)[٥] وقد فصل شيئاً هنا فى الآية : ( لا تسألون عما أجرمنا ولا نسئل عما تعملون) هذا أدخل فى الإنصاف وأبلغ فيه من : ( وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ) حيث أسند الإجرام إلى المخاطبين والعمل إلى المخاطبين[٦] وكذلك الآية : (وما الله يريد ظلماً للعباد ) . . . وهو أبلغ من قوله تعالى : ( وما ربك بظلام للعبيد ) حيث

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٤٠ .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٣٢٦ .
(٣) الكشاف جـ ١ ص ٤٣٤ .
(٤) الكشاف جـ ٢ ص ٥٩ .
(٥) الكشاف جـ ٢ ص ٧١ .
(٦) الكشاف جـ ٢ ص ٢٣١ .

جعل المنفي إرادة الظلم لأن من كان عن إرادة الظلم بعيداً كان عن الظلم أبعد وحيث نكّر الظلم كأنه نفى أن يريد ظلماً ما لعباده[١] .

**انبهار الزمخشري بالإعجاز :**

والزمخشري وإن كان حيناً يطرب لجمال البيان القرآني وإعجازه فيحاول الإشارة إلى سره فإنه حيناً آخر لا يملك إلا أن يعجب وينبهر بالإعجاز فيطلق عبارة الاستحسان فحسب. يقول مرة : « وأسرار التنزيل ورموزه في كل باب بالغة من اللطف والخفاء حداً يدق عن تفطن العالم ويزل عن تبصره»[٢] ويقف الزمخشري عند الآي : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مرَّ السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون . ومن جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون . ومن جاء بالسيئة فكبّت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون) يقف عندهما مبهوراً مأخوذاً يقول : فانظر إلى بلاغة هذا الكلام وحسن نظمه وترتيبه ومكانة أضداده ورصافة تفسيره وأخذ بعضه بحجز بعض كأنما أفرغ إفراغاً واحداً ولأمر ما . أعجز القوى وأخرس الشقاشق[٣] ويقول في الآي : ( وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون ) . . . ما أحسن نظم هذا الكلام عند المرتاض بعلم محاسن النظم[٤] . وفي الآية : ( لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ) يقول : هذه الجملة في حسن استئنافها غاية[٥] .

ويقول في الآي : ( وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض أم بظاهر من القول) . . وهذا الاحتجاج وأساليبه العجيبة التي ورد عليها مناد على نفسه بلسان طلق ذلق أنه ليس من كلام البشر لمن عرف وأنصف من نفسه[٦] .

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٣١٦ .
(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٤٧٣ .
(٣) الكشاف جـ ٢ ص ١٥٣ .
(٤) الكشاف جـ ٢ ص ١٥٦ .
(٥) الكشاف جـ ٢ ص ١٠٧ .
(٦) الكشاف جـ ١ ص ٤٩٧ .